مجموعة نقشجم العلميَّة
إصدارة رقم «٨٣»

التُّحْفَةُ المَدَنِيَّةُ

فِي شَرْحِ الأَسْرَارِ الرَّبَّانِيَّةِ

تَأْلِيف
الخَلِيفَة عَبْد المَحْمُود الصَّادِق بْن المَأْمُون

التُّحْفَةُ المَدَنِيَّةُ
فِي شَرْحِ الأَسْرَارِ الرَّبَّانِيَّةِ

تَأْلِيف

الخَلِيفَة عَبْد المَحْمُود الصَّادِق بْن المَأْمُون

ربيع الأول ١٤٤٧هـ - أغسطس ٢٠٢٥م

يمكنكم مراسلتنا، عبر البريد الإلكتروني:
ngshjm@yahoo.com
أو عبر صفحة مجموعة نقشجم العلمية، على الفيسبوك:
facebook.com/ngshjm

تقديم

الْحَمدُ للَّه الَّذِي بعث رَسُوله مُحَمَّدًا بِالْحَقِّ بشيرًا وَنَذِيرًا وداعيًا إِلَيْهِ بِإِذْنِهِ وسراجًا مُنيرًا، وَصَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعَلى آله وَصَحبه وَسَلَّم متواليا مُتَّصِلاً اتِّصَالًا كَبِيرًا متأرجًا عطرًا نافحًا مسكًا شاذيًا عبيرا.

وبعدُ، فهذا كتابُ "التُّحفة المَدَنِيَّة في شرح الأسرار الرَّبَّانِيَّة"، شرح فيه مُؤلِّفه الخليفة عبد المحمود الصادق بن المأمون كتاب شيخه الإمام السَّيِّد مُحمَّد عثمان الميرغني الختم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ "الأسرار الربانية" في مولد خير البرية وهو من الكتب المهتمة بالسيرة النبوية والشمائل الشريفة حيث يُتْلى في مجالس الموالد، وقد شرحه الخليفة الصادق شرحًا وجيزًا وعرفانيًا، بالروضة الشريفة بمدينة المُصْطَفى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وبفضل اللَّه وعونه قامت مجموعة "نقشجم العلميَّة" بتفريغ مخطوطة رقميَّة مُصوَّرة من مكتبة مولانا السَّيِّد علِيّ الميرغَنِيّ مَدَّنا بها الخليفة محمد علي أحمودة، تقع في ٦٢ لوحة، بخط نسخي عادي، بعدد متوسط ١٨ سطر للصفحة، وتاريخ نسخها لم يُذكر بها.

ونرجو أن نعثر في الإصدارة القادمة على النسخة المخطوطة بالمكتبة الوطنية السُّورِيَّة بدمشق -مُغلقة الآن- ونقابلها بهذه النسخة، لأن بها بعض السقط والتصحيف لعله من النسخ. وتكن أفضل تنقيحًا وتدقيقًا وتحقيقًا. وهي تحمل رقم الحفظ: ٥٣٢٥ داخل قسم المكتبة المولوية حلب، تقع في ٥٣ ورقة.

كما قمنا بعَزْو الآيات القرآنية ووضعها بين قوسين مزهرين ﴿ ﴾ على الرسم الإملائي. وتخريج الأحاديث النبوية والأثار، وترجمة للسَّيِّد المُصنِّف والشارح، وترصيع الكتاب بعلامات الترقيم، وإفراد متن المَوْلد لوحده، وتمييز المتن داخل الشرح بين قوسَيْن وتحبيره بلون وخط مختلفَيْن، وجعل السقط والتصحيف بين قوسَيْن هكذا [ ]، وعمل فهرسة مناسبة لمواضيع الكتاب.

ونسأل اللَّه الكريم أن ينفع به كما نفع بأصله ويتقبّله خالصًا لوجهه الكريم، ويكون سببًا في التعلُّق بجناب سيدنا المصطفى صلى اللَّه عليه وسَلَّمَ، وأن يجزي اللَّه مُصنِّفهُ وشارحهُ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا- عنَّا خير الجزاء، وصلَّى اللَّه على سيدنا مُحمَّد وعلى آله وصحبه وسلَّم.

مجموعة نقشجم العلمية

الأحد غرة ربيع الأول ١٤٤٧هـ - ٢٤ أغسطس ٢٠٢٥م

صور المخطوطة المُستعان بها

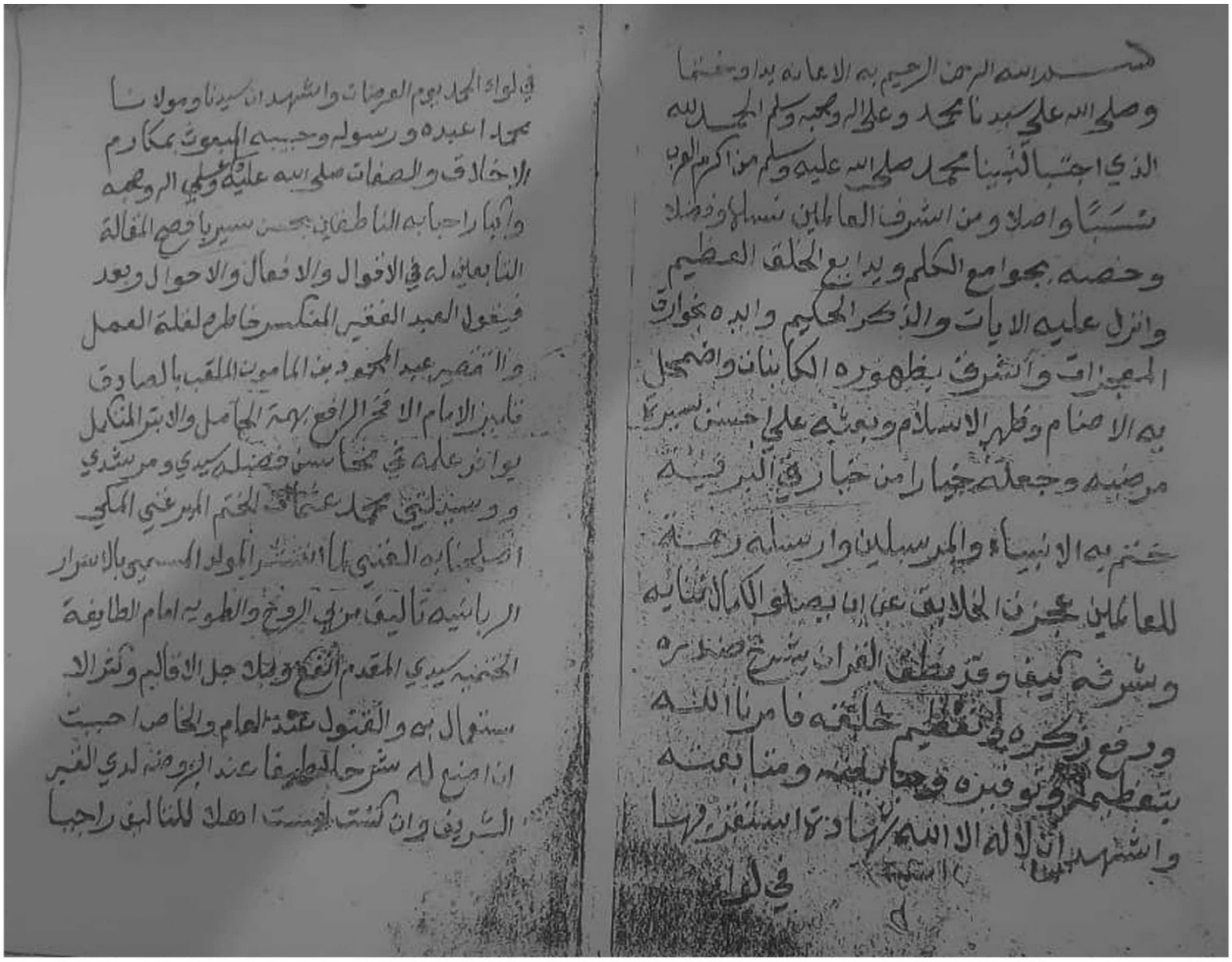

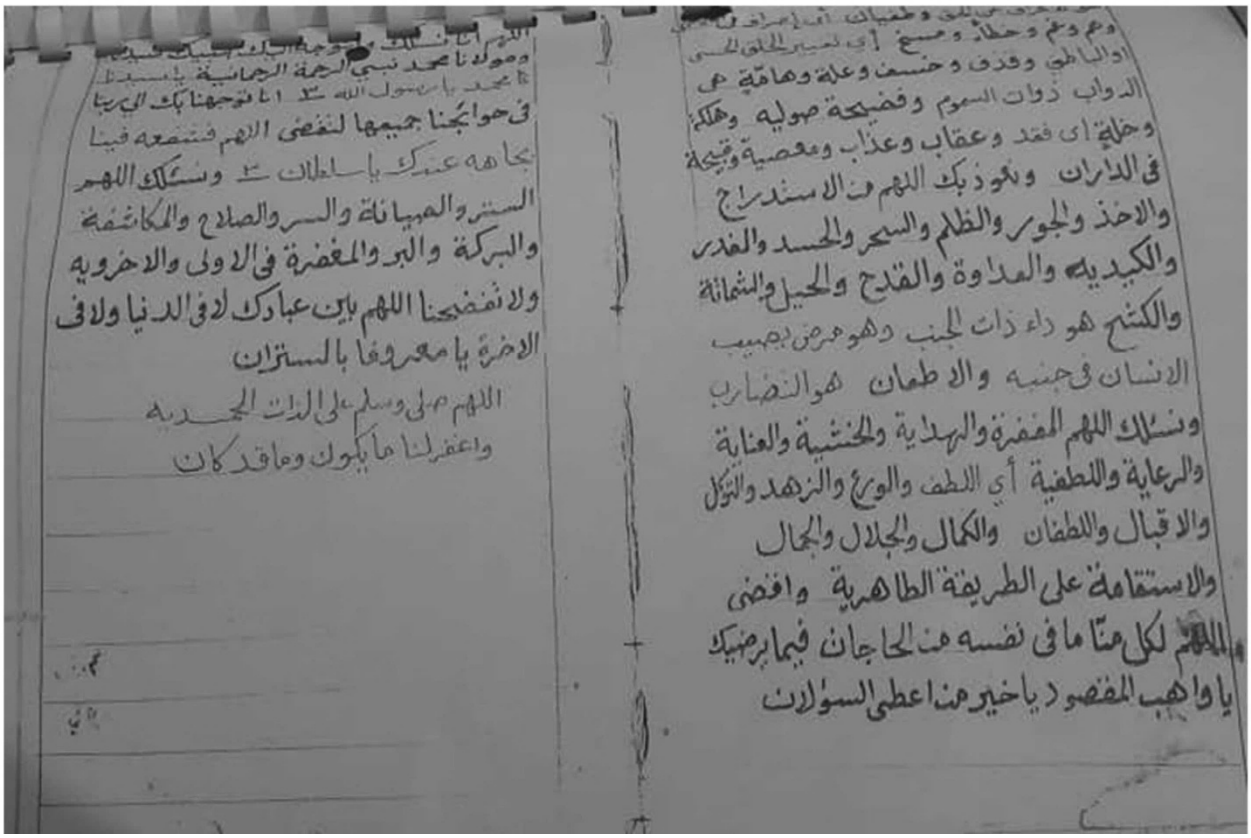

صورة الصفحة الأولى والأخيرة – نُسخة مكتبة مولانا لسيد علي الميرغني

ترجمة صاحب "الأسرار الربانيَّة"

هو العالم العلاَّمة والبحر الفهّامة، الشَّرِيف العَفِيف والشهم المنيف، وبحر العلوم ومعدن الفهوم، وختم العارفين ومحيط الغارفين، العارف بالله تعالى والدالّ عليه، السَّيِّد مُحَمَّد عُثْمَان الـمِيرْغَني الختم بن السَّيِّد مُحَمَّد أبي بكر بن السَّيِّد عبد الله الملقَّب بالمحجوب بن السَّيِّد إبراهيم بن السَّيِّد حسن بن السَّيِّد محمد أمين بن السَّيِّد علي ميرغنيّ. وينتهي نسبه إلى الإمام الحُسَين بن الإمام عَلِيّ بن أبي طالبٍ، والسَّيِّدة فاطمة الزهراء، رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمْ جميعًا.

وُلِدَ رضي الله عنه في قريةِ السَّلامَةِ بالطَّائف سنة ١٢٠٨هـ، توفيت والدته من سابع ولادته، فربّاه والدُه إلى أن جاوز عشر سنين ثم توفي والده، فتولاَّه عمه السَّيِّد مُحَمَّد ياسين، وكان من علماء بلد الله الحرام آنذاك.

وانتقل به إلى مكة المكرمة، فحفظ القرآن الكريم في حداثته، ثم انتقل إلى مجالس العلم والدرس والمعرفة فحصل من ذلك القسط الوفير، وأخذ جل علوم الظاهر من عمه وله غيره مشائخ كثيرون ببلد الله الحرام، فاتقن علوم الظاهر من التوحيد والفقه والحديث والتفسير والمنطق والنحو والصرف والبيان وغير ذلك، فتمكّن من هذه العلوم وهو في الثالثة عشر من عمره. وبعد ذلك تصدّر للإفتاء والإقراء والتدريس بالمسجد الحرام بمكة المكرمة وعمره لم يتجاوز الخامسة عشرة.

ثم تعلّق بطريق الصُّوفية وسلكه على عدد من أجلاء المشايخ منهم الشيخ أحمد بن محمد بناه المكي، والشيخ سعيد العامودي المكي، والشيخ أحمد بن عبد الكريم الأزبكي، والشيخ أحمد عبد الكريم الهندي، إلى أن جمعه الله سبحانه بالسَّيِّد أحمد بن إدريس، فلازمه وانتفع به، وترقَّى على يديه وصار من أخصّ تلامذته. ثم أسسّ دعائم طريقته الختمية من خمس طرق هي: النقشبندية،

والقادرية، والشاذلية، والجنيدية، والميرغنية وهي طريقة جده السيد عبد الله الميرغني المحجوب.

ثم طاف أنحاء واسعة من الأرض داعيًا إلى الله تعالى، لاعتناق الإسلام وسلوك طريق ومنهج الإحسان، فأسلم على يديه الكثير من الخلق. واتبعه خلق كثير في مقدمتهم العلماء والفقهاء والصالحين والأعيان. كما نشر الإسلام في كثير من المناطق الوثنية.

ارتحل من مكة المكرمة ومنها إلى اليمن، ثم بحرًا إلى الصومال، ومنها إلى مصوع، والحبشة، وكانت حوالي ١٢٢٨هـ، ثم عاد إلى مكة. ثم ارتحل إلى صعيد مصر بصحبة شيخه السَّيِّد أحمد بن إدريس، ثم اتجه جنوبًا إلى السودان، عبر بلاد النوبة ثم الدَّبّة، إلى عمق كردفان إلى بارا والأبيض في ١٢٣١هـ. ثم قصد سِنَّار، ثم اتجه شمالاً إلى شندي ثم المتمة ثم الدامر سنة ١٢٣٥ه، ثم اتجه شرقًا إلى كسلا، ثم رجع إلى مكَّة. ثم عاد مرة أخرى عن طريق أريتريا، واستقر بكسلا ومكث بها فترة، ثم رجع إلى البلد الحرام، ليعود للمرة الأخيرة للسودان واستقر فيها بسواكن، ثم رجع إلى بلده بلد الله الحرام.

ومن جُملة تلاميذه وخلفائه: بمكة المكرمة: الشيخ أحمد القطان، والشيخ عمر فدعك. وبالمدينة المنورة: السيد أسعد، والسيد أحمد بن السيد وكان وزيرًا لدي السلطان العثماني. وبمصر: الشيخ أحمد أبو حريبة، وشيخ الإسلام الشيخ إبراهيم الباجوري، وشيخ الإسلام الشيخ حسن القويسني، والخليفة خليفة ولد الحاج والخليفة أحمد ولد سعد. وبالحبشة: الخليفة محمد ولد طه، والشيخ بشري في بلاد الرحمنو، والخليفة محمد ولد ريحان، والخليفة النائب. وبشرق السودان: الحبيب يعقوب الحلنقي، والخليفة محمد الصافي، والخليفة محمد الصفوة، والخليفة محمد كيلاني، والخليفة مدني قرجن، والخليفة التاي، والخليفة الصادق. وبوسط السودان: الخليفة الحاج ود البشير الترابي، والشيخ

أحمد ود عيسى، والخليفة أحمد الشمباتي، والخليفة أحمد ود العَمَّاس. وبنهر النيل: الشيخ أحمد الريح السنهوري، والشيخ محمد المجذوب بن قمر الدين، والخليفة محمد النصيح، والشيخ حمد الصادق المجذوب، والخليفة الجزولي بن عبد الوهاب، والخليفة على ود الجزولي، والخليفة أحمد ود الطريفي. وبالشمالية: الخليفة محمد بن مالك، والخليفة النقيب، والخليفة محمد خير بن محمد صالح العراقي، والخليفة إدريس المحسي. وبكردفان: الشيخ إسماعيل الولي، الخليفة صالح سوار الدهب، والخليفة القاضي عربي الهواري، والخليفة حماد البيتي.

من مُؤلفاته: له العديد من التصانيف والمؤلفات في شتى العلوم والمعارف: ففي التفسير: تاج التفاسير لكلام الملك الكبير. وفي الحديث: الأربعون حديثا، وختام الأمالي في الأحاديث المعالي. وفي الفقه: رحمة الأحد في إقتفاء أثر الرسول الصمد. وفي اللغة: غنية الصوفية في علم العربية، والفوائد البهية في حل الآجرومية، وشرح ألفية ابن مالك، وشرح ألفية السيوطي في علم البيان. وفي التصوف: الخزانة القدسية في الحقائق اللدنية. وفي رسائل السلوك والإرشاد: التحذير من الدنيا الغرارة، والحضور في الصلاة للسعداء من أهل حضرة اللَّه، والزهور الفائقة في حقوق الطريقة الصادقة، والسر الإلهي الحائط في حرمة أهل الوسائط، وقصيدة السر الظاهر والنور الباهر في بعض أحوال الأكابر، والفتح المبروك في كثير من آداب السلوك، والهبات المقتبسة والعطايا الدقيقة في أسرار الطريقة، والوصية الحاوية للدرر المهداة للسالكين في بعض تهاذيب الواصلين، وتنبيه المحسنين في مراقبة صلاة المريدين، ولوامع الأنوار البهية في كيفية خلوة الطريقه الختمية، ومنوال الطريقة الطاهرة النورانية. وفي الأدعية والأذكار والأوراد: أساس الطريقة الختمية وشرحه النفحات المكية، وراتبه الأنوار المتراكمة من الحضرة الوهبية، وشرحيْه فيوض البحور المتلاطمة والأسرار

المترادفة من الدواوين الإلهية، والأنوار المنبهلة في الأوراد المستعملة، وتوسله حبل الوصال إلى حضرة ذي الجلال، وتوسل إكسير قضاء الحاجات، وشرحه المعاني اللطيفات، وتوسل النور الأعظم نظم أسماء النبي المكرم، واستغفار جليل، نفثة الحي القيوم البر لمناجاة السحر، وأدعية وأحزاب وأذكار أخرى. وفي السيرة: مولده الأسرار الربانية في مولد خير البرية، ومصباح الأسرار شرح مشكاة الأنوار لجده المحجوب. وفي الحكم: الفيوضات الإلهية المتضمنة للأسرار الحكمية، وشرحها الإمدادات السنية. وفي الصلوات النبوية: فتح الرسول ومفتاح بابه للدخول لمن أراد إليه الوصول، والجواهر المستظهرة من الكنوز العلية، والشهود المحمدي، باب الفيض والمدد من حضرة الرسول السند، وجواهر السطح في الصلاة بسورة الفتح، وفاتح الوجودات، ونور الإله في الصلاة بتعريف المصطفى نفسه ومولاه، ونور الأنوار في الصلاة على النبي المختار، والمشارب اللدنية على الصلاة الميرغنية. وفي العقيدة: منجية العبيد من هول يوم الوعد والوعيد. وفي مصلح الحديث: منح المغيث المغني في حل البيقوني. وفي دواوين المديح النبوي: الغرائب المفرقات من لطائف الخرافات الذاهبات، والكوثر المحمود في كثير من أوصاف المحمود، والنفحات المدنية في المدائح المصطفوية، والنور البراق في مدح النبي المصداق، والياقوت السمح في القصائد التي قبل الفتح، وشم الوردة في تخميس البردة، ومجالي تجلي الفرقان في أرواح وأسرار علوم القرآن، المباسطات البهية، وديوان معشر على حروف المعجم. وفي الوعظ: الوعظ الثمين في تعمير أعصار رمضان الثلاثين.

انتقل رضي الله عنه إلى جوار مولاه الكريم في شوال سنة ١٢٦٨هـ، حيث دفن بحوطة السادة المراغنة بمقبرة المعلا.

ترجمة شارح "الأسرار الربانية"

يُعتبر الخليفة الخليفة عبد المحمود من أكبر وأخصّ تلاميذ الإمام الخَتْم ولقد لقَّبه بـ"الصَّادق"، وذكره في توسُّله بالأسماء الحُسنى حيث قال: تَعُمُّ نَقِيبًا صَالِحًا صَادِقًا عَرَبِي.

وقد ندرت الترجمة له ففي "شرح توسُّل الأسماء الحُسنى" للخليفة الصادق نفسه: صَادِقًا: الفقير إلى الله تعالى تراب أقدام الختم المُؤَلِّف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وخليفته بأرض بَرْقُو ومن ورائها، واسمه عبد المحمود مأمون المسير لقَّبه الختم بالصادق، اللَّهُمَّ اجعلنا من أهل مقام الصدق والإخلاص بحُرمتِهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. اهـ

كما ترجم له صاحب "الإبانة النورية": ومنهم: تلميذه الخليفة الصادق بن عبد المحمود الغرباوي، تكمَّل على يده وكان مُرشدًا داعيًا إلى الله تعالى، وتخرَّج على يده جماعة من أهل الطريقة. اهـ

من مؤلفاته: رسالة في بعض شؤون الطريقة، وشرح التوسل بأسماء الله الحسنى والذي أمره الإمام الختم بشرحه، وكتابنا هذا "التحفة المدنية شرح الأسرار الربانية".

ذكر الأخ وليد قاسم في كتابه "المُزن الهتَّان": وكان الخليفة الصادق قد بلغ من العلم مَبْلغًا، حيث لما أراد الشيخ الدقلاشِيّ اختباره أرسل إليه منظومة له سنة ١٢٤٩هـ ، فلم يتوقف الخليفة الصادق عن الرد إلا بمقدار مطالعته لها، وقد ردَّ عليه بمنظومة طويلة مطلعها: أَلَا أَيُّهَا الْحَبْرُ الْمُكَمَّل رَأْيهُ .... إلخ، وردَّ الجواب مع التلميذ المُرسَل، فلما رآها الدقلاشِيّ تعجَّب وقال: هذا حال التلميذ فكيف يكون الأُستاذ !؟ -أَيْ: الختم-.

[مقدمة الكتاب]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

به الإعانة بدءًا وختمًا وصَلَّى اللَّه على سَيِّدنا مُحمَّد

وعلى آله وصحبه وسَلَّم

الحمدُ للَّه الذي اجتبى لنبيِّنا مُحمَّد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من أكرم العرب نسبًا وأصلاً، ومن أشرف العالمين نسلاً وفضلاً، وخَصَّهُ بجوامع الكلم وبدائع الخلق العظيم، وأنزل عليه الآيات والذكر الحكيم، وأيَّدهُ بخوارق المعجزات وأشرق بظهوره الكائنات، واضمحل به الأصنام وظهر الإسلام، وبعثه على أحسن سيرة مرضية، وجعله خيارًا من خيار البرية، خَتَمَ به الأنبياء والمرسلين وأرسله رحمة للعالمين، عجزت الخلائق عن أن يصلوا لكمال ثنائه وشرفه، كيف وقد نطق القرآن بشرح صدره ورفع ذكره وتعظيم خلقه، فأمرنا اللَّه بتعظيمه وتوقيره ومبايعته ومتابعته.

وأشهدُ أن لا إله إلا اللَّه شهادةً استقر بها في لواء الحمد يوم العرضات، وأشهد أن سَيِّدنا ومولانا مُحمَّدًا عبده ورسوله وحبيبه المبعوث بمكارم الأخلاق والصفات، صلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وعلى آلِهِ وصَحْبِهِ وكبار أحبابه الناطقين بحسن سِيَرِه بأفصح المقال، التابعين له في الأقوال والأفعال والأحوال.

وبعدُ، فيقول العبد الفقير المُنكسِر خاطره لقِلَّة العمل والتقصير عبد المحمود بن المأمون المُلَّقب بالصَّادق، تلميذ الإمام الأفخر الرافع بهِمَّة الحامل والأبتر المُتكمِّل بوافر علمه في محاسن فضله، سَيِّدي ومرشدي ووسيلتي مُحمَّد عثمان الختم المِيرْغَنِيّ المَكِيّ، أصلحنا به الغني:

لما انتشر المولد المُسمَّى بـ"الأسرار الرَّبَّانِيَّة" تأليف مُربِّي الروح والطوية إمام الطائفة الختمية سيدي المُقدَّم، انتفع به وبلا [شَكَّ] جُلّ الأقاليم وكَثُر الاستعمال به والقبول عند العام والخاص، أحببتُ أن صنع له شرحًا لطيفًا عند الروضة لدى القبر الشريف، وإن كنت لستُ أهلاً للتأليف، راجِيًا أن اندرج في سلك خدمة جنابه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأن أذوق بسببه سوابق بره، عسى أن تنفجر لي عين من بحار فيضه على يد الساقي بلَحْظِه ورشده، وسَمَّيتهُ بـ"التُّحْفَة المَدَنِيَّة فِي شَرْحِ الأَسْرَارِ الرَّبَّانِيَّة".

واعلَمْ أن هذا المولد له إمدادات عظيمة وفضائل حمية، منها أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يحضر في قراءته كلما قُرِئ وإجابة الدعاء عند آخره، وحصلت أكبر نعمة في بلده التي يُتلى فيها، حتى إني سمعتُ عن بعض الأخوان أهل الصدق يقول: ما يُتلى مولد عند أُسبُوعه الأوَّل إلا نشأ نشأة صالحة إما عالمًا نافعًا أو تقِيًّا صالحًا.

أما قراءته ففي كل عصر جُمُعة أو ظُهْرها في حضر أو سفر، ويحصل ذلك ولو ببعضه نحو ثلاثة أبواب، وقراءته من المُهِمَّات بل من جملة لوازم العبادات كما في الحديث من قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الحديث الصحيح عن أنس: «ذِكْرُ الأَنْبِياءِ مِنَ العِبادَةِ، وذِكْرُ الصَّالِحِينَ كَفَّارَةٌ، وَذِكْرُ المَوْتِ صَدَقَةٌ، وَذِكْرُ القَبْرِ يُقَرِّبُكُمْ مِنَ الجَنَّةِ»[1] من "الجامع الصغير".

وأن هذا المولد مجموعٌ في ذكره صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الأخلاق الكريمة وصفاته الفخيمة التي يُحيَى بها القلوب وتنكشف بها الكروب. قال بعض العلماء: ينبغي للذاكر له صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يستحضر ذاته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في التشخيص، ويقصد بمخاطبته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأنه حاضر معه كما تقدَّم. وإحضار صفاته ويتفاءل بالقُرب منه وصرف الهمة إليه استحياءً من أن يخاطبه وهو غافل عنه، لأَنَّا نذكر عظيمًا في حضرته، ثم لأن الهمم مع حضوره تقرع لخدمته وتطرب القرائح لجلالته اهـ.

---

(١) أخرجه الديلمي.

الحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي اصْطَفَى لِمَحَبَّتِهِ الذَّاتَ المُحَمَّدِيَّة ۞ مِنَ القِدَمِ وَجَعَلَهَا وَاسِطَةً لِكُلِّ إِنْسَان ۞ وَأَبْرَزَهَا أَوَّلاً فِي حَضْرَتِهِ الوَاحِدِيَّة ۞ وَفَرَّعَ عَنْهَا سَائِرَ الأَكْوَان ۞ وَأَمَدَّهَا بِأَنْوَارِهِ الْعَظِيمَةِ الشَّعْشَعَانِيَّة ۞ وَأَوصَلَ إِمْدَادَهَا لِجُمْلَةِ الأَعْيَان ۞ أَحْمَدُهُ أَنْ جَعَلَنَا مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ الْمَرْضِيَّة ۞ وَكَمَّلَنَا بِالاِنْطِوَاءِ جَوْفَ حِجَابِ هذَا الدُّرِّ المُصَان ۞ وَرَحِمَنَا بِهَدْيِهِ وَسُنَّتِهِ القَوِيَّة ۞ وَشَرَّفَنَا بِنُزُولِ هَذَا القُرْءَان ۞ وَطَهَّرَ قُلُوبَنَا بِحُبِّ هذِهِ الجَوْهَرَةِ الْفَرْدِيَّة ۞ فَصَارَتْ قُلُوبُنَا طَاهِرَةً مُطَهَّرَةً مِنَ الطُّغْيَان ۞ وَأَفَاضَ عَلَى سَرَائِرِنَا مِنَ الوُدِّ لِهذِهِ المَعَانِي العِلْمِيَّة ۞ فَنَطَقْنَا بِالحِكْمَةِ الَّتِي تَشَرَّفَ بِهَا الثَّقَلاَن ۞ وَأَهَّلَ عُقُولَنَا لِلتَّأَمُّلِ فَاقْتَدَيْنَا بِتِلْكَ الأَفْعَالِ العَلِيَّة ۞ فَرَقَيْنَا عَلَى دَرَجِ العِنَايَةِ لِأَعْلَى الجِنَان ۞ وَأَشْكُرُهُ عَلَى مَا خَصَّنَا مِنْ فَضْلِهِ بِهِ مِنْ مَزِيَّة ۞ وَهِيَ تَأْخِيرُنَا فِي أُمَّةٍ هُمْ شُهَدَاءُ اللَّهِ بِحَقِّ وَنُصْرَان ۞ وَأَيَّدَنَا بِالْعُلُومِ المَكْنُونَةِ المَخْزُونَةِ الإِلَهِيَّةِ اللَّدُنِيَّة ۞ وَذَلِكَ بِاقْتِفَائِنَا لِآثَارِ نُقْطَةِ الْوُجُودِ وَسِرِّ العِلْمَان ۞ وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ شَهَادَةً أَتَحَقَّقُ بِهَا وَأَشْهَدُ إِفْرَادَ الأَحَدِيَّة ۞ وَأَعْلُو بِهَا إِلَى مَنَازِلِ المُوَحِّدِينَ المُنَزِّهِينَ الحَقَّ عَنِ الْمَكَان ۞ وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدِنَا مُحَمَّداً الَّذِي مِنْ مِيمِ اسْمِهِ امْتَدَّتْ سَائِرُ العَوَالِمِ الخَلْقِيَّة ۞ وَهُوَ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ وَحَاءُ رَحْمَتِهِ الَّتِي رُحِمَ بِهَا الْمَلَوَان ۞ وَمِنْ مِيمِهِ الأُخْرَى تَعَيَّنَتْ مِيَاهُ الْعَوَالِمِ الحِسِيَّةِ وَالمَعْنَوِيَّة ۞ وَامْتِلاَؤُهَا مِنْ أَنْوَارٍ وَأَسْرَارٍ وَإِذْعَان ۞ وَمِنْ دَالِ ذلِكَ الاِسْمِ دَامَتْ نِظَامَاتُ المَمَالِكِ المُلْكِيَّة ۞ وَدَامَتْ صَوْلَةُ الدِّينِ بِبَرَكَتِهِ وَنَفْعُهَا فِي العَالَمَان ۞ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ

وَأَصْحَابِهِ مَا ظَهَرَتْ أَسْرَارٌ حِكْمِيَّة ۞ وَمَا بَرَزَتْ عُلُومٌ وَحِكَمٌ وَمَعْرِفَةٌ وَأُلْزِمَ فِي الْبَعْضِ الكِتْمَان ۞ اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ عَلَى قِبْلَةِ تَجَلِّيَاتِكَ الرَّبَّانِيَّة ۞ مَحَلِّ نَظَرِكَ مِنَ الوُجُودِ عَالِي الشَّان ۞ كِتَابِ أَسْرَارِكَ المُنْطَوِيَةِ الحَقِّيَّةِ العِلْمِيَّة ۞ مَظْهَرِ الرَّحْمَةِ مِنْ حَضْرَتِهَا وَمَجْلَى اسْمِكَ الرَّحْمَن ۞ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ مَا اسْتَقَامَتِ المِلَّةُ الحَنِيفِيَّة ۞ وَمَا تَرْجَمَ بِلِسَانِ الشَّرِيعَةِ وَالحَقِيقَةِ تَرْجُمَان ۞

قال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ) اقتداءً بكتاب اللَّه العزيز وعملاً بقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «كُلُّ أَمْرٍ ذِي بَالٍ، لَا يُبْدَأُ فِيهِ بِبِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ فَهوَ أَقْطَعُ»[٢] أَيْ: ناقص وقليل البركة.

[(الحَمْدُ للَّهِ)] ثم ثنَّا بحمد اللَّه امتثالاً لقول سيد المرسلين: «كُلُّ أَمْرٍ ذِي بَالٍ لا يُبْدَأُ فِيهِ بِالْحَمْدِ لِلَّهِ أَقْطَعُ»[٣]. (الَّذِي اصْطَفَى) أَيْ: اختاره في الأزل (لِمَحَبَّتِهِ) الخاصَّة (الذَّات) المُتَّصِفة بالأخلاق (المُحَمَّدِيَة) هي ذات نبينا مُحمَّد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اتَّخذهُ اللَّه حبيبًا.

(مِنَ القِدَمِ) وقبل أن يخلق الخلق إشارةً كما في الحديث عن ابن عباس قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «نَزَلَ عَلَيَّ جِبْرِيل عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا أَوَّلُ، السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا آخِرُ، السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا ظَاهِرُ، السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا بَاطِنُ، قَالَ: فأنكرت ذلك عليه، وقلتُ: يا جبريل هذه الصفات لمخلوق مثلي وهذه صفات الخالق التي لا تليق إلا

(٢) أخرجه الخطيب البغدادي في "الجامع لأخلاق الراوي والسامع".

(٣) أخرجه أبو داود وأحمد وابن ماجه والطبراني والبيهقي والنَّسَائِيّ والدارقطني ابن حبان والحاكم.

به، قال: يا محمد اعلم أن الله قد أمرني أن أُسَلِّم عليك بهذا السلام»
الحديث(٤).

(وَجَعَلَهَا) أَيْ: الذات المُحمَّدية (وَاسِطَة) بين العباد والمعبود (لِكُلٍّ) جِنٍّ و(إِنْسَان) بل لكل مخلوق.

قال جمال الدين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لما مضى حكم سلطنة الذات الأزلية والصفات العلية ببسطة مملكة الألوهية ونشر ألوية الربوبية بإظهار الخلائق وتسخيرها وإمضاء الأمور وتدبيرها، بمباشرة ذلك من الذات القديمية بغير واسطة بعيدًا جدًّا لبعد المناسبة بين عزة القدم وذلة الحدوث، حَكَمَ الحكيم سبحانه وتعالى تخليف نائب ينوب عنه في التصريف والولاية والرعاية، وله وجه في القدم يستمد به من الحق، ووجه في الحدوث يمد به الخلق، وخلع عليه خالع جميع أسمائه وصفاته، ومكَّنَهُ في مسند الخلافة بإلقاء مقاليد الأمور إليه، وإحالة حكم الوجود عليه وتنفيذ تصريفاته في خزائن ملكه وملكوته، وتسخير الخلائق لحكمه وجبروته، وسمَّاه إنسانًا لإمكان وقوع الأُنْس بينه وبين الخلائق(٥).
اهـ من "شرح الهمزية لابن زكرى".

---

(٤) أخرجه أبو محمد جبر في "الملاذ والاعتصام".

(٥) ذكره عبد الرازق القاشاني في "شرح تائية ابن الفارض".

(وَأَبْرَزَهَا) أظهر نور ذات سيدنا مُحمَّد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (أَوَّلاً) قبل وجود كل شيء (فِي حَضْرَتِهِ الوَاحِدِيَّة)، كما سيأتي من حديث جابر بن عبد اللَّه.

(وَفَرَّعَ عَنْهَا سَائِرَ الأَكْوَان) أَيْ: أجناس العلم، والكونُ: ما سوى اللَّه تعالى من جسمانية وروحانية نورانية وظلمانية من أجرام وأعراض.

قال بعض العلماء[٦]: لما تعلَّقت إرادة الحق سبحانه وتعالى بإيجاد خلقه وتقدير رزقه أبرَزَ الحقيقة المُحمَّدِيَّة من الأنوار الصمدانية في حضرة الوحدانية، ثم سلَخَ منها العوالم كلها علوها وسفلها على صورة حكمية كما سبق في سابق إرادته وعلمه بنبوته وبشَّرهُ برسالته، هذا وآدم لم يكن لها، ثم انبجست منه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الروح وظهر بالمظهر الأعلى، فهو صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الجنس العلي على سائر الأجناس.

ولما انتهى الزمان بالاسم الباطن في حقِّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى وجود جسمه وارتباط الروح به انتقل حكم الزمان إلى الاسم الظاهر، فظهر مُحمَّد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جسمًا وروحًا، فهو صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خزانة السر وموضع نفوذ الأمر، فلا ينفذ أمر إلا منه ولا ينقل خير إلا عنه.

---

(٦) قاله القسطلاني في "المواهب اللدنية بالمنح المحمدية".

(وَأَمَدَّهَا) بعد بروزها (بِأَنْوَارِهِ) وخلع عليها من أسمائه وصفاته (الْعَظِيمَةِ الشَّعْشَعَانِيَّة) الجَلِية الباهرة، (وَأَوصَلَ) أرسل (إِمْدَادَهَا لِجُمْلَةِ الأَعْيَان) من أنبياء وملائكة وأولياء بل لجميع المخلوقات.

قيل: ولمَّا خلق اللَّه المخلوقات احتاجت إلى أنواع الأقوات التي لا تستقيم بقاؤها إلا بها، فأمدَّها الحق سبحانه وتعالى بما تحتاج إليه وتتقوت عليه على سيدنا محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وبواسطة: فسرى نور مدده في سائر الكائنات، كما أن بمدده نقاء الذات فيه بقاء الصفات، فهو الذي مَدَّ العلماء بالعلم، والعارفون بالمعرفة، والخاشعون بالخشعة، والخائفين بالخوف، والراجين بالرجاء، والذاكرين بالذكر، والشاكرين بالشكر، والصابرين بالصبر، والراضين بالرضا، والمُحبِّين بالمحبة، والمتواضعين بالتواضع، والعافين بالعفو، والراحمين بالرحمة، والمُحسِنين بالإحسان، والكرماء بالكرم، والمستغيثين بالإغاثة.

وغير ذلك من كامل الصفات وسني الحالات فأَهْلُها كُلُّهم فُروعُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهو ينبوع مددهم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما جاء في الحديث عنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «إِنَّمَا أَنَا قَاسِمٌ وَاللَّهُ يُعْطِي»[٧].

هذا معنى قول المُصنِّف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وَأَوصَلَ إِمْدَادَهَا لِجُمْلَةِ الأَعْيَان.

---

(٧) أخرجه البخاري ومسلم وأحمد وأبو يعلى والطبراني والحاكم.

(أَحْمَدُهُ) تعالى على مزيد فضله (أَنْ جَعَلنَا) في سابق علمه (مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ الْمَرْضِيَّة) عند ربها، وهي أمة النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (وَكَمَّلَنَا) بوافر العلم والصدق، وخصَّنا (بِالاِنْطِوَاءِ) في سلك (جَوْف) أنوار (حِجَابِ) هذا الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بأن جعلته حياة أرواحنا وشهودنا لـ(هذَا الدُّرِّ المُصَان) المحفوظ بالعِصمة.

(وَرَحِمَنَا بِهَدْيِهِ وَ) متابعة (سُنَّتِهِ القَوِيَّة) الحقيقة المستقيمة التي لا اعوجاج فيها، (وَشَرَّفَنَا) بإرسال حبيبه الأعظم إلينا، وأكمل نعمته (بِنُزُولِ هَذَا القُرْءَان) العزيز ومعرفة أسراره وتدبُّر معانيه.

(وَطَهَّرَ قُلُوبَنَا) به (بِحُبِّ هذِهِ) أَيْ: ذات سيدنا مُحمَّد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (الجَوْهَرَةِ الْفَرْدِيَّة) المُتكَمِّلة بالكمالات الفردية المخصوصة بالصفات الأُنْسِيَّة، (فَصَارَتْ قُلُوبُنَا) بسبب حُبِّها (طَاهِرَةً) من كل رَيْن ورَيْب (مُطَهَّرَةً مِنَ) الخبث و(الطُّغْيَان).

(وَأَفَاضَ) الكريم الوهَّاب (عَلَى سَرَائِرِنَا مِنَ الوُدِّ) المعرفة (لِهذِهِ المَعَانِي العِلْمِيَّة) أَيْ: معرفة أسرار القرآن، (فَنَطَقْنَا بِالحِكْمَةِ) هي المعرفة التامة التي يخُصّ بها من يشاء كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾[البقرة: ٢٦٩] ، (الَّتِي تَشَرَّفَ بِهَا الثَّقَلاَن) يعني الجن والإنس، لأن الحكمة: وَضْع الشيء في محله، ولذلك حكمة العارفين إرشاد كل أحد بما يصلح له.

(وَأَهَّلَ عُقُولَنَا) بأن جعل فيها أهليَّة للفهم عنه والنظر (لِلتَّأَمُّلِ) في بدائع معلوماته وفهم مشكلات كتابه ومعاني سُنَّة رسوله، (فَاقْتَدَيْنَا) بإثر وجه (بِتِلْكَ) أثر (الأَفْعَالِ) وأقوال النبوة ([العَلِيَّة] فَرَقَيْنَا) بذلك (عَلَى دَرَجِ) أَيْ: درجات (العِنَايَةِ) الصِّدِّيقيَّة الكبرى ليرفعنا (لِأَعْلَى) الفردوس في (الجِنَانِ)، والنظر إلى وجهه الكريم والعفو والرضوان.

(وَأَشْكُرُهُ) بذلك (عَلَى مَا خَصَّنَا) بهذه العنايات (مِنْ فَضْلِهِ) تعالى، فيا لنا (بِهِ مِنْ مَزِيَّة) على سابق الأُمَم وفضائله، (وَهِيَ تَأْخِيرُنَا فِي) آخر الزمان مع (أُمَّةٍ هُمْ شُهَدَاءُ اللَّهِ) يوم القيامة على الأمم بأن رسلهم بلَّغوا، وذلك قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾[البقرة: ١٤٣]، ([بِحَقٍّ وَنُصْرَان]).

(وَأَيَّدَنَا بِالْعُلُومِ) والأسرار (المَكْنُونَةِ المَخْزُونَةِ الإِلَهِيَّةِ اللَّدُنِيَّة) فألقاها في قلوبنا فعرفناه أنه الحق فعبدناه حق عبادته بالصدق، (وَذَلِكَ بِاقْتِفَائِنَا) أَيْ: مُتابعتنا (لِآثَارِ) النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو (نُقْطَة) دائرة (الوُجُودِ)، (وَ) خزانة (سِرِّ العِلْمَان) أَيْ: الشريعة والحقيقة.

(وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ) لا معبود بحَقٍّ إلا الله تعالى، (شَهَادَةً أَتَحَقَّقُ بِهَا) علم اليقين، (وَأَشْهَدُ) أَيْ: أتحقَّقُ (إِفْرَادَ الأَحَدِيَّة) يعني اليقين، (وَأَعْلُو) ارتفع (بِهَا إِلَى [مَنَازِلِ]) مراتب خاصة لِـ(المُوَحِّدِينَ) الله سبحانه وتعالى، و(المُنَزِّهِينَ الحَقَّ عَنِ الْمَكَان) والجهات والشمول والإحاطة.

(وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدنَا) ونبينا ومولانا (مُحَمَّداً الَّذِي) تفرَّعت من نوره جميع الكائنات وذلك (مِنْ مِيمِ اسْمِهِ) الأوَّل (امْتَدَّتْ سَائِرُ العَوَالِمِ الخَلْقِيَّة)، كما تقدَّم بيانه، ([وَهُوَ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ]).

(وَحَاءُ) مدد (رَحْمَتِهِ الَّتِي رُحِمَ بِهَا الْمَلَوَان) أَيْ: الثَّقْلَيْن من إنس وجان، (وَمِنْ مِيمِهِ [الأُخْرَى] تَعَيَّنَتْ) انفجرت عيون (مِيَاهُ الْعَوَالِمِ الحِسِيَّةِ) كالشراب والطعام، (وَالمَعْنَوِيَّة) وهي التي فَسَّرَها المُصنِّف بقوله: (وَامْتِلَاؤُهَا مِنْ) هدايةٍ وعلومٍ و(أَنْوَارٍ وَأَسْرَارٍ) وحِكمٍ وإخلاصٍ (وَإِذْعَان) أَيْ: خضوع لعظمة اللَّه.

(وَمِنْ دَالِ ذلِكَ الِاسْمِ دَامَتْ) أَيْ: استدامت (نِظَامَاتُ) أهل (المَمَالِكِ المُلْكِيَّة) بالقهر والغلبة عليهم وبسِرِّه، (وَدَامَتْ) أَيْ: استقامت (صَوْلَةُ) أَيْ: محَجَّة (الدِّينِ) أَيْ: دين الإسلام الذي لا يقبل الحق غيره، وبقي (بِبَرَكَتِهِ) صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى يوم القيامة، (وَنَفْعُهَا) أَيْ: للكائنات وسرى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيضه (فِي العَالَمَان) أَيْ: عالم المُلْك والملكوت.

قال الإمام البكِيّ: إن الميم الأولى من اسم النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إشارة إلى الملكوت الأعلى، والحاء للحياة والحفظ الذي به كتب القلم، والميم المُشدَّدة إشارة للمدد الباطن والظاهر، والدال للدوام والاتصال الماحي لوهمَيْ [الانقطاع] والانفصال[٨].

---

(٨) "شرح الصلاة المشيشية" لابن زكرى.

وقيل: الميم الأولى للمُلْك الأوَّل الدنيوي، والثانية للمُلك الثاني الأخروي الأبدي ولذلك ضُعِّفَتْ، والحاء للرحمة تَوَسَّطَتْ بينهما، إشارةً إلى أن المُلْكَيْن يتجاذبانه ويستمِدَّان منه، والدال إشارة إلى دوام المُلْك الثاني[٩].

ومنها باعتبار الهيئة للإشارة لأنه المقصود الأكبر من النوع الإنساني، ولذلك خُلِقُوا على شكل كتابة اسمه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: فالرأس والوجه بمنزلة الميم، واليدان إذا مَدَدْتهُمَا بمنزلة الحاء، والبطن بمنزلة الميم الثاني، والرجلان بمنزلة الدال[١٠]. هكذا قاله المُحقِّقُون.

وقوله: فِي العَالَمَان: جَرَّهُ المُصَنِّف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بألفٍ على قول من يجرُّ المُثَنَّى بألف، وهي لغة خشع كما في "ابن عقيل" و"شرح القطر"، وبها قُرِئ: ﴿إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ﴾[طه: ٦٣].

(صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِه) أقاربه: وهم بنو هاشم وعبد المُطَّلِب على أحد القولَيْن، (وَأَصْحَابِهِ) مَنْ اجتمع مؤمنًا به ومات على إيمانه، (مَا) أَيْ: مدة (ظَهَرَتْ) للعارفين (أَسْرَارٌ حِكْمِيَّة) أَيْ: مُحكمة في قلوبهم. (وَ) مدة (مَا) (بَرَزَتْ) للعلماء (عُلُومٌ) بالظاهر (وَحِكَمٌ) أَيْ: أحكامٌ (وَمَعْرِفَةٌ) بقواعد الشريعة، (وَ) مدة ما (أُلْزِمَ) أوجب (فِي الْبَعْضِ) العلوم (الكِتْمَان) إشارة إلى

---

(٩) "شموس الأنوار ومعادن الأسرار" للشيخ محمد مرون.

(١٠) "شرح الصلاة المشيشية" للشيخ الطيب بن كيران و"إبداء الخفا في شرح أسماء المصطفى" للشيخ الحرالي. "الكواكب الدرية في تراجم السادة الصوفية" للمناوي.

اللَّه تعالى ....[١١] على رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ علومًا، منها أمره بتبليغها كعلوم الشريعة فبلَّغها ولم يكتم منها حرفًا واحدًا، ومنها خُيِّر فيها وأعلمها لبعض خواصه أصحابه كالإمام عليّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ولذلك قال: في صدري علومٌ لو شتَّتها لكم لرأيتموني في الزنديق. قيل: هي التي ورثها الأولياء بالباطن. ومنها أمره بكتمها ولم يُخبِر بها أحد.

ولمَّا كان المُصَنِّف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من أكابر الوارثين في الباطن استوجب الثناء على النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولذلك أتى بالصلاة مَرَّة بعد مَرَّة بلسان الحقائق فقال:

(اللَّهُمَّ صَلِّ) بأكمل صلاتك (وَسَلِّمْ) بأَتَمِّ تحيّاتك ونوامي بركاتك (عَلَى قِبْلَةِ تَجَلِّيَاتِكَ) ووجهة أسرارك (الرَّبَّانِيَّةِ مَحَلِّ نَظَرِكَ) لكونه حبيبك (مِنَ الوُجُودِ) في مُلْكك وملكوتك، فهو رسولك (عَالِي الشَّان) رفيع المقام عندك، (كِتَابِ) طلسم (أَسْرَارِك) المخزونة (المُنْطَوِيَةِ) في قلبِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، (الحَقِّيَّةِ العِلْمِيَّة) اللَّدُنِيَّة، (مَظْهَرِ) تجلّي (الرَّحْمَةِ مِنْ حَضْرَتِهَا) وهي حضرة تجلّي (وَمَجْلَى] اسْمِكَ الرَّحْمَن) قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾[الأنبياء: ١٠٧] ، (وَ) صلَّى اللَّه (عَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ) مدة (مَا اسْتَقَامَتِ) الشريعة السمحة، كما أنهم جاهدوا بأموالهم وأنفسهم على (المِلَّة الحَنِيفِيَّة) المائل بجميع الأديان، (وَ) مدة (مَا) تَرْجَمَ عالِمٌ (بِلِسَانِ الشَّرِيعَةِ) القرآن والسُّنَّة، (وَ) مدة ما نطق عارِفٌ بلسان (الحَقِيقَةِ تَرْجُمَان).

---

١١ يوجد بياض في النص الأصل.

أَمَّا بَعْدُ؛ فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ الْجُمُعَةِ وَقَعَ فِي الخَاطِرِ تَأْلِيفُ مَوْلِدٍ يُتْلَى فِي بَعْضِ أَخْبَارِ وِلَادَةِ الحَقِيقَةِ الأَحْمَدِيَّة ۞ وَسَطعَ الوَارِدُ بِتَسْمِيَتِه بِـ«الأَسْرَارِ الرَّبَّانِيَّة» ۞ فِي مَوْلِدِ مَنْ وُضِعَ وَهُوَ مَصْحُوبٌ بِالخِتَان ۞ وَالدُّرَرِ الوَهْبِيَّة المَجْلِيَّةِ الحَقِيَّة ۞ فِي بَعْضِ أَنْبَاءِ مَنْ ظَهَرَ وَعَيْنَاهُ مَكْحُولَتَان ۞ فَرَأَيْتُ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رُؤْيَةً مَنَامِيَّة ۞ وَرُؤْيَتُهُ حَقٌّ كَمَا أَوْرَدَ عَنْهُ ثِقَاتُ الرُّوَاةِ بِطُرُقِ الإِحْصَان ۞ فَأَمَرَنِي أَنْ أُصَنِّفَ مَوْلِداً وأَجْعَلَ إِحْدَى قَافِيَتَيْهِ هَاءَ بَهِيَّة ۞ وَالْأُخْرى نُوناً كَمَا فَعَلْتُ لَأَنَّهَا نِصْفُ دَائِرَةِ الأَكْوَان ۞ وَبَشَّرَنِي أَنَّهُ يَحْضُرُ فِي قِرَاءَتِهِ إِذَا قُرِئَ فَسَطَّرْتُ لِيُتَشَرَّفَ بِهِ كُلَّمَا تُلِيَ حِكَايَةً نَوْمِيَّة ۞ وَأَنَّهُ يُسْتَجَابُ الدُّعَاءُ عِنْدَ ذِكْرِ الوِلَادَةِ وَعِنْدَ الْفَرَاغِ مِنْهُ فَنَسْأَلُ اللَّهَ الْغُفْرَان ۞ فَشَرَعْتُ وَأَنَا الفَقِيرُ الرَاجِي لِأَعْلَى المَشَاهِدِ القُرْآنِيَّة ۞ لَأَنَّهُ هُوَ الْقَصْدُ المُؤَمَّلُ بَرَكَةُ تِلَاوَتِهِ عَلَى مَمَرِّ الْأَزْمَان ۞ فَأَقُولُ وَأَنَا الحَقِيرُ الطَّالِبُ مِنَ اللَّهِ مَعَانِي يَعْلَمُهَا خَفِيَّة ۞ الغَنِيُّ بِاللَّهِ الشَّرِيفُ الشَّهِيرُ بِالمِيْرغَنِي مُحَمَّدُ عُثْمَان ۞ ابْنُ السَّيِدِ مُحَمَّدٍ أَبِي بَكْرِ بْنِ السَّيِدِ عَبْدِ اللَّهِ تِلْمِيذُ ابْنِ إِدْرِيسَ أَحْمَدَ ذِي الأَفْعَالِ الأَحْمَدِيَّة ۞ أَرْسَلَ اللَّهُ عَلَى الجَمِيعِ مَعَ الأَبْنَاءِ وَالإِخْوَانِ سَحَائِبَ الرَّحْمَةِ وَالرِّضْوَان ۞ هَذَا وَلَمَّا أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يُبْرِزَ هَذِهِ العَوَالِمَ العُلْوِيَّةَ وَالسُّفْلِيَّة ۞ قَبَضَ قَبْضَةً مِنْ نُورِهِ فَكَانَتْ هِيَ مُحَمَّدًا بْنَ عَدْنَان ۞ وَقَالَ أَوَّلُ مَا خَلَقَ اللَّهُ نُورُ نَبِيِّكَ يَا جَابِرُ جَوَابًا لِمَسْأَلَتِهِ المَحْكِيَّة ۞ وَكُنْتُ نَبِيًّا وَآدَمُ بَيْنَ المَاءِ وَالطِّينِ عَنْهُ لَقَدْ بَان ۞ وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِجِبْرَيلَ كَمْ عُمِّرْتَ يَا جِبْرِيلُ فَقَالَ لَا أَدْرِي رِوَايَةً جَلِيَّة ۞ غَيْرَ أَنَّ

كَوْكَباً يَبْدُو فِي الحِجَابِ الرَّابِعِ يَا مَعْشَرَ الإِخْوَان ۞ بَعْدَ كُلِّ سَبْعِينَ أَلْفَ سَنَةٍ مَرَّةً فَهذِهِ عَلَامَاتٌ اجْتِبَائِيَّة ۞ وَقَدْ رَأَيْتُهُ اثْنَيْنِ وَسَبْعِينَ أَلْفَ مَرَّةٍ بِلَا نُقْصَان ۞ فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَعْرِيفًا بِمَقَامِهِ وَأَسْرَارِهِ المُصْطَفَوِيَّة ۞ وَعِزَّةِ رَبِّي أَنَا ذَلِكَ الكَوْكَبُ الَّذِي رَأَيْتَهُ يَا جِبْرِيلُ فِي حِجَابِ المَنَّان ۞ وَغَيْرُ ذلِكَ مِمَّا لَا تَحْصُرُهُ الْأَقْلَامُ فِي الكُتُبِيَّة ۞ وَلَا يَسَعُهُ فِي الحَقِيقَةِ حِفْظُ الكَاتِبَان ۞

ولما أنهى الكلام على الخطبة أخَذَ يُبيّن سبب تأليف هذا الكتاب وتعريف اسمه والترغيب فيه بما وقع له من الواردات فقال:

(أَمَّا بَعْدُ فَلَمَّا) دخلتُ إقليمًا من أقاليم السُّودان خالٍ نسبيًّا من الإرشاد، (كَانَ يَوْمُ الْجُمُعَةِ) التي هي أفضل الأيام، (وَقَعَ فِي الخَاطِرِ) أَيْ: وارد إلهي، لأن قلوب العارفين مُطهَّرة من نزغات الشيطان وتسَوُّلات النفس، فإن اللَّه قد حفظها وجعلها بيوتًا لتجلياته فلا يبدو لهم إلا ما هو حق، (تَأْلِيف) صُنْع في (مَوْلِدِ) الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وأمرني أن (يُتْلَى فِي) كل نهار ذلك اليوم عند عصره وأذكرُ (بَعْض) صحيح (أَخْبَارِ وِلَادَة) الذات المُشتمل على (الحَقِيقَةِ الأَحْمَدِيَّة وَسَطَعَ) ظهر (الوَارِدُ بِتَسْمِيَتِه) أَيْ: المولد (بِالأَسْرَارِ الرَّبَّانِيَّة فِي مَوْلِدِ مَنْ وُضِعَ) وُلِد من بطن أُمِّهِ (وَهُوَ مَصْحُوبٌ بِالخِتَان) أَيْ: مختون ومقطوع السُّرَّة حتى لا يرى أحد سُرَّته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما سيأتي، (وَالدُّرَر الوَهْبِيَّة) من خالق

البرية (المَجْلِيَّة) بالأنوار الجمالية (الحَقِيَّة) الثابت بالكتاب والسُّنَّة (فِي بَعْضِ أَنْبَاءِ) أخبار (مَنْ ظَهَرَ) وُلِد (وَعَيْنَاهُ مَكْحُولَتَان) من حسنها.

(فَرَأَيْتُ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رُؤْيَةً مَنَامِيَّة) أَيْ: يقظة، ويدل عليها قوله: وقع في الخاطر لا يكون إلا في اليقظة، وذكرها منامية مخافة أن يقع لأحد إنكار في ذلك، واستدل عليها بالآثار أنها حق بقوله: (وَرُؤْيَتُهُ حَقٌّ كَمَا أَوْرَدَ عَنْهُ ثِقَاتُ) من الأئمة (الرُّوَاةِ بِطُرُقِ) صحاح (الإِحْصَان) بالحفظ والإتقان، وذلك كما في البُخَارِيّ عن أَنَسٍ أَنَّهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ رَآنِي فِي الْمَنَامِ فَسَيَرَانِي فِي الْيَقَظَةِ، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ لَا يَتَمَثَّلُ بِي». قَالَ أَبُو سَعِيدٍ الْخُدْرِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ رَآنِي فِي الْمَنَامِ فَقَدْ رَآنِي حَقًّا فَإِنَّ الشَّيْطَانَ لَا يَتَمَثَّلُ بِي». والصحيح يُرى حقيقةً ولو على غير صفته كما صَحَّ عنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنِّي أُرَى فِي كُلِّ صُورَةٍ»[١٢]. قال ابن العربي: رؤيته على غير صورته مثال نور من روحانية.

وأما رؤيته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقظة فقد تواترت عن الصالحين سلفًا وخلفًا. قال الإمام الشَّاذلِيّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لَوْ اُحْتُجِبَ عَنِّي طَرْفَةَ عَيْنٍ لَمَا عَدَدْتُ نَفْسِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ. قيل: الشيخ محمد بن أبي الحمائل يرى النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كثيرًا حتى يقع له أن يسأل في الشيء يقول:

---

(١٢) قال مرتضى الزبيدي في "الإتحاف": رواه أبو نُعَيم. وقال ابن حجر: أخرجه ابن أبي عاصم.

حتى أعرضه على النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيدخل رأسه في جيبه، فيقول: قال النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كذا وكذا[١٣].

وشاهدنا ذلك عند المُصنِّف كثيرًا ومن تلامذته، كذلك قال الإمام الغزالي: إن أرباب القلوب في يقظتهم يشاهدون الملائكة وأرواح الأنبياء ويسمعون منهم أصواتًا ويقتبسون منهم فوائد[١٤]. فاحذَرْ من إنكار ذلك فإنه من أشدّ الخطر.

(فَأَمَرَنِي) عند اجتماعي به (أَنْ أُصَنِّفَ مَوْلِدًا) من الآثار الصحيحة، (وَ) أَنْ (أَجْعَلَ إِحْدَى قَافِيَتَيْهِ هَاءً بَهِيَّةْ) ساكنة، (وَ) القافية (الْأُخْرى نُونًا) قبلها ألف (كَمَا فَعَلْتُ) في أوَّلِ الكتاب، (لِأَنَّهَا) أَيْ: النون (نِصْف دَائِرَةِ الأَكْوَان) ولعله في آخر كلمة كُنْ، وجعلها المُصنِّف تفاؤُلًا بذلك.

(وَبَشَّرَنِي) النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (أَنَّهُ يَحْضُرُ فِي) مجلس (قِرَاءَتِهِ كُلَّمَا قُرِئَ) فامتثلتُ لأمره صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، (فَسَطَّرْتُ) مُقتبسًا له من الآثار وبديع الترتيب وذلك (لِيُتَشَرَّفَ بِهِ) تاليه (كُلَّمَا تُلِيَ) واستفتاح قلب سامعيه وحصول البركة لمُحَصِّله، وهذه الجملة وقعت له في (حِكَايَة نَوْمِيَّة) حكاها االنَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في النوم، (وَ) بشرَّنِي (أَنَّهُ) (يُسْتَجَابُ الدُّعَاءُ) لمن دعى بشيء من المُهِمَّات (عِنْدَ ذِكْرِ الوِلَادَةِ) حين

(١٣) "حاشية على متن الهمزية" للشيخ سليمان الجمل.

(١٤) ذكره في كتابه "المنقذ من الضلال".

القيام، (وَعِنْدَ الْفَرَاغِ مِنْهُ) في الباب الأخير، (فَنَسْأَلُ اللَّهَ) بسببه القبول و(الْغُفْرَان) لنا ولقارئه ولسامعه.

(فَشَرَعْتُ) مُستعينًا باللَّه (وَأَنَا الفَقِيرُ) لرَبِّي (الرَاجِي) منه الارتقاء (لِأَعْلَى المَشَاهِدِ) المقامات الأُنْسِيَّة لأُتْقِن فيه الأسرار (القُرْآنِيَّة) أَيْ: القرآن، (لِأَنَّهُ هُوَ الْقَصْدُ) الحامل فيه كُلًّا به المعارف الجامعة لعلوم الأوَّلِين والآخرين، ([المُؤَمَّل]) المستمر بِـ(بَرَكَة تِلَاوَتِهِ عَلَى مَمَرِّ الْأَزْمَان) وهو من أعظم معجزاته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

(فَأَقُولُ وَأَنَا الحَقِير) الذليل الخاضع لعظمة ربي (الطَّالِب) الكمال (مِنَ اللَّهِ) عَزَّ وَجَلَّ (مَعَانٍ) أمور بيني وبينه، (يَعْلَمُهَا) هو لا غيره، (خَفِيَّة) عسى أن يَمُدَّنِي بها ويُولِيني لها بفضله فإنه جوادٌ كريم، (الغَنِيّ) الواثق (بِاللَّهِ الشَّرِيف) الحُسَيْنِيّ (الشَّهِير بِالمِيْرغَنِيّ) لقب تلقَّاهُ المُصَنِّف من سابع أجداده وهو من أهل البيت بالحجاز يُعرفُون بالمَرَاغِنَة، (مُحَمَّد عُثْمَان) ختم أهل العرفان اسم المُصَنِّف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مُركَّبٌ من علمَيْن، ولعله محمد عثمان علَمَيْن، وهو الإمام الأجَلُّ والقطب الأكمل الذي أرشد أُمَّة في الآفاق، وحبَّبَ القلوب إلى اللَّه بالأشواق، ونشر فيضه العميم في سائر الأقاليم، مجلى الأسرار والحقائق مرشد في جميع الطرائق، وله كرامات كثيرة لا يسعها التسطير، فراجعها إن شئت في كتابٍ لأحمد صاحب "الإبانة" وغيره.

وهو (ابْنُ السَّيِدِ مُحَمَّدٍ أَبِي بَكْرٍ) والد المُصنِّف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وكان عالمًا علَّامة تقيًا عاملاً ذا خُلْق حَسَن، تُوفِّي رَحِمَهُ اللَّهُ في هذا القرن[١٥].

قال المُصنِّف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: رأيتُ الشيخ مصطفى في النوم فقلتُ: ما حالك؟ قال: في الفردوس الأعلى، فقلتُ: ما حال والدي؟ قال: ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ﴾[القمر: ٥٥]. وقال بعد ذلك: اجتمعتُ مع المُصْطَفَى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سألته عنه فقال: ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ﴾.

وهو (ابْنُ السَّيِدِ عَبْدِ اللَّهِ) ابن إبراهيم، وكان وَلِيًّا عارفًا من أكابر الزُّهَّاد، وجمَعَ بين الشريعة والحقيقة، وله المطلع في الآثار والحقائق بمكَّةَ المُشرَّفة، ودرَّس في المسجد الحرام وأرشد، وخرج إلى الطَّائِف ومات بها وقبره مشهور هناك يُزار، وله تآليف شتى، رَحِمَهُ اللَّهُ وَنَفَعنَا بِهِ.

والمُصنِّف (تِلْمِيذُ ابْنِ إِدْرِيسَ أَحْمَد ذِي الأَفْعَالِ الأَحْمَدِيَّة) هو الإمام الأعظم والقطب الأفخم وارث المقامات النبوية وبحر العلوم الإلهية، ولم يُرى له نظير في متابعته للنبي المُختار، فكأنَّهُ من سابق المهاجرين والأنصار، وهو شريفِيّ حَسَنِيّ من بني إدريس، وُلِد ونشأ في القارة وانتقل إلى مكة، وأثره مشهور نَفَعنَا اللَّهُ بِمَدَدِهِ المَبْرُور. وللأستاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ محبَّةٌ له من حين صغره، حيث تكمَّل عنده وأرشده في حضرته،

---

(١٥) أيْ: في زمن وقرن الشارح الخليفة الصادق.

حيث أنه قال فيه: الأولياء بالنسبة إلى مقامه كحَلقة مُلْقَاة في فلاة، كما أخبر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(أَرْسَلَ اللَّهُ عَلَى الجَمِيعِ مَعَ الأَبْنَاءِ وَ) المشائخ مع (الإِخْوَانِ) والأتباع والأبناء والأصحاب (سَحَائِبَ الرَّحْمَةِ) والامتنان والعفو (وَالرِّضْوَان) آمين يا رب العالمين.

وشرَعَ في المقصود فقال: (هَذَا وَلَمَّا أَرَادَ اللَّهُ) سبحانه وتعالى في أزله (أَنْ يُبْرِزَ) يظهر قدرته بوجود (هَذِهِ العَوَالِمَ العُلْوِيَّةَ وَالسُّفْلِيَّةَ قَبَضَ) بالقدرة الأزليَّة (قَبْضَةً مِنْ نُورِهِ) الجمال والجلال، (فَكَانَتْ) تلك القبضة هي (مُحَمَّد) رَسُول اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (ابْن عَدْنَان) أحد أجداده صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فسيأتي بيانه.

(وَقَالَ) صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (أَوَّلُ مَا خَلَقَ اللَّهُ) قبل كل شيء (نُور نَبِيِّكَ يَا جَابِرُ جَوَابًا لِمَسْئَلَتِهِ المَحْكِيَّة) في [كُتُب الحديث]، وذلك قول جابر بن عبد اللَّه الصحابِيّ من قدماء الإسلام، شَهِد العقبة والمشاهد كلها مع رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يا رسول اللَّه بأبي وأمي أخبرني عن أول شيء خلقه اللَّه قبل الأشياء كلها؟، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يا جابر إن اللَّه خلق قبل الأشياء نور نبيك من نوره، فجعل ذلك النور يدور بالقدرة حيث شاء اللَّه تعالى عَزَّ وَجَلَّ، ولم يكن في ذلك [الوقت] لوح ولا قلم ولا جنة ولا نار ولا مَلَك ولا سماء ولا أرض ولا شمس ولا قمر ولا جن ولا إنس، ولما أراد اللَّه تعالى أن يخلق الخلق قسَّم من ذلك النور

أربعة أجزاء: فخلق من الجزء الأول القلم، ومن الجزء الثاني اللوح، ومن الجزء الثالث العرش، ثم قسَّم الجزء الرابع أربعة أجزاء: فخلق من الأول نور أبصار المؤمنين، ومن الثاني نور قلوبهم أَيْ: المعرفة، ومن الثالث نور إنسهم وهو التوحيد، ومن الرابع لا إله إلا الله» الحديث(١٦).

(وَ) قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: («كُنْتُ نَبِيًّا وَآدَمُ بَيْنَ الْمَاءِ وَالطِّينِ» عَنْهُ لَقَدْ بَانَ). وفي رواية أحمد عَنْ مَيْسَرَةَ قَالَ: «قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ: [مَتَى كُتِبْتَ نَبِيًّا؟ قَالَ]: كُنْتُ نَبِيًّا وَآدَمُ بَينَ الرّوحِ والجَسَدِ». وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَتَى وَجَبَتْ لَكَ النُّبُوَّةُ؟ قَالَ: بَيْنَ [خَلْقِ] آدَمَ وَنَفْخِ الرُّوحِ فِيهِ»(١٧). وَفِي آخر: «وَآدَمُ مُنْجَدِلٌ فِي طِينَتِهِ»(١٨).

وروى البخاري عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: (وَقَالَ) رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِجِبْرَيلَ) الأمين عَلَيْهِ السَّلَامُ: (كَمْ عُمِّرْتَ يَا جِبْرِيلُ) من السنين؟ (فَقَالَ: لَا أَدْرِي) لستُ أعلم (رِوَايَةً جَلِيَّة) ظاهرة صحيحة، (غَيْرَ أَنَّ كَوْكَبًا) نجمًا (يَبْدُو) ويطلع (فِي الحِجَابِ الرَّابِعِ) من الحُجُب، (يَا مَعْشَرَ الإِخْوَان) يا إخوة الإسلام والإيمان أراه (بَعْدَ كُلِّ سَبْعِينَ أَلْفَ سَنَةٍ مَرَّةً) واحدة (فَهذِهِ عَلَامَاتٌ) تدل على أنه أول المخلوقات وإثبات النبوة في الملإ الأعلى قبل خلق آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ، وأنه معروفٌ بينهم أنه خاتم

(١٦) أخرجه عبد الرزَّاق.

(١٧) أخرجه الترمذي والحاكم والبيهقي.

(١٨) أخرجه أحمد وابن حبان والحاكم.

النبيين، (اجْتِبَائِيَّة) أَيْ: اختياريَّة، وقال جبريل: (وَقَدْ رَأَيْتُهُ) أَيْ: الكوكب (اثْنَيْنِ وَسَبْعِينَ أَلْفَ مَرَّةٍ بِلَا نُقْصَان)، ولم يكن إذا ذاك أرض ولا سماء ولا شمس ولا قمر ولا نجم.

(فَقَالَ) رسول الله (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَعْرِيفًا بِمَقَامِهِ) وعلوه على الملإ الأعلى (وَأَسْرَارِهِ المُصْطَفَوِيَّة) وارتفاع مكانته عند خالق البرية: (وَعِزَّةِ رَبِّي أَنَا ذَلِكَ الكَوْكَبُ الَّذِي رَأَيْتَهُ يَا جِبْرِيلُ فِي حِجَابِ المَنَّان وَغَيْرُ ذلِكَ) كحديث عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ لَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أتدري مَنْ أنا؟، أنا الذي خلَق الله أول كل شيء نوري، فسجَدَ لله فبقي في سجوده سبعمائة عام، فأوَّل كل شيء سجد لله نوري ولا فخر، يا عمر أتدري مَنْ أنا؟، أنا الذي خُلِقَ العرش من نوري، والكرسي من نوري، واللوح والقلم من نوري، ونور أبصار المؤمنين من نوري ولا فخر»[١٩].

والنُّقُول في هذا المحل طويلة (مِمَّا لَا تَحْصُرُهُ الْأَقْلَامُ فِي الكُتُبِيَّة) من كثرة الرواية قديمًا وحديثًا، أَيْ: (وَلَا يَسَعُهُ فِي الحَقِيقَةِ) أَيْ: على الحقيقة (حِفْظ الكَاتِبَان) أَيْ: ولا يحصره حفظ الملَكَيْن عتيد ورقيب لكونهما أشدّ حفظًا.

وختَمَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بكل باب من هذا الكتاب بهذه الصَّلَاة: (اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ عَلَى الذَّاتِ المُحَمَّدِيَّة وَاغْفِر لَنَا مَا يَكُونُ وَمَا قَدْ كَانْ) أَيْ: استرنا فيما مضى واعصمنا فيما بقى بحُرْمة الصَّلاة على حبيبك الأعظم.

---

(١٩) أخرجه أبو مروان الطيبي في "فوائده".

وَأَمَّا مَا وَرَدَ فِي حَقِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الكُتُبِ القَدِيمِيَّة ۞ فَالتَّوْرَاةُ والإِنْجِيلُ مَمْلُؤَتَانِ وَالفُرْقَان ۞ وَيِكْفِيكَ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ آيَةً إِلَهِيَّة ۞ وَ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ﴾ بِهَا لَقَدْ تَمَّ الامْتِنَان ۞ وَقَدْ وَصَفَهُ اللَّهُ تَعَالَى فِي التَّوْرَاةِ بِبَعْضِ صِفَاتِهِ المَنْعِيَّة ۞ الَّتِي أَنْزَلَهَا فِي كِتَابِهِ القُرْآن ۞ وَهِيَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ أَخْبَارًا مُبَشِّرِيَّة ۞ وَزَادَ فِيهَا وَحِرْزاً لِلأُمِّيِّينَ فَهذَا الوَصْفَان ۞ وَقَالَ أَنْتَ عَبْدِي وَرَسُولِي سَمَّيْتُكَ المُتَوَكِّلَ شَهَادَةً قُدْسِيَّة ۞ وَغَيْرُ ذلِكَ مِمَّا رَوَاهُ كَعْبُ الأَحْبَارِ وَغَيْرُهُ وَابْنُ سَلَامٍ بَعْدَ الإِيمَان ۞ وَقَالَ آدَمُ لَمَّا خَلَقْتَنِي رَفَعْتُ رَأْسِي إِلى عَرْشِكَ فَإِذَا هُوَ مَكْتُوبٌ فِيهِ هذِهِ الكَلِمَاتُ الَّتِي هِيَ المَبَانِي الإِسْلَامِيَّة ۞ لَا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ فَعَلِمْتُ أَنَّهُ ذُو الرِّفْعَان ۞ وَأَنَّهُ لَيْسَ أَحَدٌ أَعْظَمَ عِنْدَكَ مِنْهُ مِنْحَةً قُرْبِيَّة ۞ وَأَنَّ هَذَيْنِ الاِسْمَيْنِ اللَّذَيْنِ بِهِمَا يَتِمُّ الوُصْلَان ۞ وَأَبْدَى مِمَّنْ جَعَلْتَ اسْمَهُ مَعَ اسْمِكَ أُمُوراً فَأَوْحَى اللهُ إِلَيْهِ ذُو العَظَمَةِ الرَّحِيمِيَّة ۞ وَعِزَّتِي وَجَلَالِي لِيَعْلَمُهُ عَظَمَةُ عَيْنِ الأَعْيَان ۞ إِنَّهُ لَآخِرُ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ لَوْلَاهُ مَا خَلَقْتُكَ أَحْوَالاً تَشْرِيفِيَّة ۞ وَقِيلَ أَبَا مُحَمَّدٍ يُكَنَّى صَفِيُّ اللَّهِ آدَمُ كَان ۞ وَقَالَ عِيسَى شَاهِدًا فِيهِ لَهُ وَلَسْتُ أَهْلاً أَنْ أُحْمِلَ حِذَاءَهُ وَأَنْبَاءً مَسْطُورِيَّة ۞ وَلَوْ أَخَذْتُ فِي النَّقْلِ لَتُهْتُ فِي وُسْعِ هَذَا المِيدَان ۞ وَقَدْرُهُ المُعَظَّمُ قَدِ اتَّضَحَ قَبْلَ بُرُوزِهِ وَأَشْرَقَتْ أَنْوَارُهُ فِي العَوَالِمِ بِالكُلِّيَّة ۞ وَلَيْسَ يَحْصُرُ ذلِكَ إِلاَّ الْمَلِكُ الدَّيَّان ۞

ثم شرَعَ المُصَنِّف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وأكرمه في الدارَيْن بالإنعام والاحترام في ورود لتعظيم الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الكُتُب القدام، أمَدَّنا الله بغَرْفِ كُؤوسِهِ وأرواني وهو الباب الثاني:

(وَأَمَّا مَا وَرَدَ فِي حَقِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الكُتُبِ القَدِيمِيَّة) المُنْزَلة على الرُّسُل قبل القرآن، (فَالتَّوْرَاة) المُنْزَلة على الكليم موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ بِالْعِبْرَانِيَّةِ، (والإِنْجِيل) المُنْزَلة على المسيح عيسى ابن مريم عَلَيْهِ السَّلَامُ روح الله بِالسُّرْيَانِيَّةِ، (مَمْلُؤَتَانِ) من وصفه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، (وَ) كذلك (الفُرْقَان) العظيم المُنْزَل عليه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ السَّلَامُ، وسُمِّي فُرْقانًا لكونه فارقًا بين الحق والباطل.

(وَيكْفِيكَ) في وصفه إجمال (قَوْل اللَّهِ تَعَالَى) في سورة ن: (﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[القلم: ٤]) شرفًا وفضلًا وتعظيمًا، (آيَةً إِلَهِيَّة) في مجده وكمال في صفته المرضية، (وَ) قال تعالى: (﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ﴾) ﴿مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾[التوبة: ١٢٨]، (بِهَا لَقَدْ تَمَّ الإِمْتِنَان) في وصفه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تفصيلاً من كونه عزيزًا عند رؤوف رحيم زاده بها تعظيمًا.

(وَقَدْ وَصَفَهُ اللَّهُ تَعَالَى فِي) كتابه (التَّوْرَاة بِبَعْضِ صِفَاتِهِ المَنْعِيَّة) القوية المصدرة على صيغة اسم الفاعل المُتَضَمَّنَة بمعنى المدح، والأمور (الَّتِي أَنْزَلَهَا) عليه (فِي كِتَابِهِ القُرْآن وَهِيَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾[الأحزاب: ٤٥] أَخْبَارًا مُبَشِّرِيَّة) لمن أطاعه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ

وَسَلَّمَ وإنذار لمن عصاه. (وَزَادَ فِيهَا) أَيْ: في التوراة (وَحِرْزًا) حصينًا (لِلأُمِّيِّينَ) أَيْ: أمنوا به، (فَهذَا الوَصْفَان) مذكوران في التوراة والقرآن، (وَقَالَ) تعالى في التوراة: (أَنْتَ عَبْدِي وَرَسُولِي) إلى الخلق كافة، (سَمَّيْتُكَ المُتَوَكِّلَ) فهذه (شَهَادَةً) من الله (قُدْسِيَّة) لرسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وتلك الرواية كما في "البُخَارِيّ" عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلامٍ: «إِنَّا نَجِدُ صِفَةَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي التَّوْرَاةِ: يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا وَحِرْزًا لِلْأُمِّيِّينَ، أَنْتَ عَبْدِي وَرَسُولِي، سَمَّيْتُكَ الْمُتَوَكِّلَ، لَيْسَ بِفَظٍّ وَلَا غَلِيظٍ، وَلَا سَخَّابٍ فِي الْأَسْوَاقِ، وَلَا يَجْزِئُ بِالسَّيِّئَةِ السَّيِّئَةَ، وَلَكِنْ يَعْفُو أَوْ يَتَجَاوَز، وَلَنْ يَقْبِضَهُ اللَّهُ حَتَّى يُقِيمَ بِهِ الْمِلَّةَ الْعَوْجَاءَ، بِأَنْ تَشْهَدُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَيَفْتَحُ بِهَا أَعْيُنًا عُمْيًا، وَآذَانًا صُمًّا، وَقُلُوبًا غُلْفًا».

(وَغَيْرُ ذلِكَ مِمَّا رَوَاهُ كَعْبُ الأَحْبَارِ) رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وكان تابعًا جليلًا، أسلم على يد عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وروى شَهْر: أن كعب الأحبار أخبره بأول أمره قال: أن أبوه كان من مؤمني أهل التوراة برسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكان أعلم الناس بما أُنزِل على موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وكتب الأنبياء، ولم يدخر عني شيئًا مما كان يعلم، فلما حضرته الوفاة قال: يا بُني قد علمت أني لم أَدَّخِر عنك شيئًا مما كنتُ أعلمه، إلا أني خبيتُ عنك ورقتين فيهما ذكر نبي يبعث وقد أطل زمانه فكرهتُ أن أخبرك بذلك، فلا آمن عليك بعد وفاتي أن يخرج بعض هؤلاء الكَذَّابين

فتتبعهم، وقد قطعتها من كتابك وجعلتهما في هذه الكوّة، فلا تتعرض لهما ولا تنظر فيهما زمانك هذا، وأقرهما في موضعهما حتى يخرج ذلك النبي، فإذا خرج فاتبعه وانظر فيهما فإن اللَّه يزيدك بذلك خيرًا، فلما مات والدي ولم يكن شيء أحب إليَّ من أن أنقض المأتم حتى أنظر ما في الورقتين.

فلما انقضى المأتم فتحتُ الكوّة ثم استخرجتُ الورقتين فإذا فيهما: مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ خَاتَمُ النَّبِيِّينَ لا نبي بعده، مولده بمكة ومهاجره بطيبة، ليس بفظ ولا غليظ، ولا صخَّاب في الأسواق، ولا يجزئ بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويصفح، أُمَّته الحامدون الذين يحمدون اللَّه على كل شرف وعلى كل حال، وتتذلل ألسنتهم بالتكبير، وينصر اللَّه نبيهم على كل من ناوأه، يغسلون فروجهم بالماء، ويأتزرون على أوساطهم، وأناجيلهم في صدورهم، ويأكلون قربانهم في بطونهم ويؤجرون عليها، وتراحمهم بينهم تراحم بني الأب والأم، وهم أول مَنْ يدخلون الجنة يوم القيامة، وهم السابقون المُقرّبُون، وهم الشافعون المُشَفّعُون.

فلما قرأتُ هذا قلتُ في نفسي: واللَّه ما علَّمني شيئًا هو خير لي من هذا، فمكثتُ بذلك ما شاء اللَّه حتى بُعِث رَسُول اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وبيني وبينه بلاد بعيدة منقطعة لا أقدر على إتيانه، وبلغني أنه خرج بمكة يظهر مَرَّة ويستخفي مَرَّة. فقلتُ في نفسي: ولعله هو هذا، واستخوفتُ ما كان والدي يحذِّرني من الكذَّابين، وأحببتُ أن أتبيَّن وأتثبت، فلم أزل

كذلك حتى أتاني قدم المدينة فقلتُ في نفسي: أرجو أن يكون إياه، وجعلتُ ألتمسُ السبيل إليه، فلم أقدر حتى بلغني أنه تُوفّي صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ، فقلتُ في نفسي: لعله لم يكن الذي كنت أظن.

ثم بلغني أن خليفته قام مقامه حتى جاءتنا جنوده فقلتُ في نفسي: لا أدخل هذا الدين حتى أنظر سِيَرهم وأعمالهم وإلى ما تكون عاقبتهم. حتى قدم إلينا عمر بن الخَطَّاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فلما رأيتُ صلاة المسلمين وصيامهم وبرهم ووفاءهم بالعهود وما صنع اللَّه بهم على الأعداء، علمتُ أنهم هم الذين كنت أنتظر، فحدَّثتُ نفسي بالدخول في الإسلام، فواللَّه إني ذات ليلة فوق سطح لي إذا دخل رجل من المسلمين يتلو كتاب اللَّه حتى أتى على هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ﴾[النساء: ٤٧]. قال: فلما سمعتُ هذه الآية خشيتُ أن لا أصبح حتى يُحَوَّلَ وجهي في قفاي، فلما أصبحتُ فغدوتُ عند عمر فأسلمتُ اهـ.(٢٠)

وغيره كرؤية سَلْمَان الفارِسِيّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعتُ برجل بين غَيْضَتَيْن يخرج كل سنة، لا يدعو للذي سُقِم إلا شُفِي، فغلبوني فلم أخلُص إليه حتى دخل الغَيْضَة إلا منكبيه فتناولته فقال: مَنْ هذا؟ والتفتَ إليَّ، قلتُ: يرحمك اللَّه أخبرني عن الملة الحنيفية ملة إبراهيم، قال: إنك

(٢٠) أخرجه ابن عساكر.

تسأل [عن شيء ما يسأل] الناس عنه اليوم، قد أطلّ زمان نبي يبعث بهذه المدينة من أهل الحرم فأته فهو يحملك عليه، ثم دخل. اهـ من "سيرة ابن إسحاق" باختصار.

(وَ) قال عبد الله (ابْنُ سَلَامٍ بَعْدَ الإِيمَان) أَيْ: بعدها: هذا رسُول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لقد عرفتُ رسول الله كما أعرف النَّبِيّ من علمه بعد التوراة من ذكر خلقته وخلقه ودينه وأُمَّته كما تقدَّم.

وَرَوَى [الطَّبَرَانِيُّ] عَنْ [عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ] رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إِنَّ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمَّا اقْتَرَفَ الْخَطِيئَةَ قَالَ: يَا رَبِّ بِحَقِّ مُحَمَّدٍ إِلَّا وَغَفَرْتَ لِي، فَقَالَ تَعَالَى: يَا آدَمُ كَيْفَ عَرَفْتَهُ وَلَمْ أَخْلُقْهُ؟، (وَقَالَ [آدَمُ]:) عَلَيْهِ السَّلَامُ: يَا رَبِّ ([لَمَّا خَلَقْتَنِي]) بِيَدِكَ -أَيْ: قُدْرَتِكَ الْبَاهِرَة-، وَنَفَخْتَ فِيَّ مِنْ رُوحِكَ [٢١] -أَيْ: سِرِّكَ الَّذِي لَا يَعْلَمُ حَقِيقَتَهُ غَيْرُكَ- .

(رَفَعْتُ رَأْسِي إِلى عَرْشِكَ) فنظرتُ إلى قوائمه (فَإِذَا هُوَ مَكْتُوبٌ فِيهِ هذِهِ الكَلِمَاتُ الَّتِي هِيَ المَبَانِي الإِسْلَامِيَّة)، وهي: (لَا إِلهَ إِلاَّ اللَّهُ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ) صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، (فَعَلِمْتُ) «أَنَّكَ لَمْ تُضِفْ إِلَى اسْمِك إِلَّا أَحَبَّ الْخَلْقِ إِلَيْكَ». وعلمتُ أنه عندك ذو الرفعة في الملإ الأعلى ودار المأوى، وأنه ليس أحد أعظم عندك منه، فهو الحبيب الذي اصطفيته (مِنْحَةً) عطاءً منك له صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. (وَأَنَّ هَذَيْنِ) أَيْ: كلمتَيْن الشهادة (الاِسْمَيْنِ اللَّذَيْنِ) مَنْ تمسَّك (بِهِمَا يَتِمُّ) له (الوُصْلَان) إليك.

---

(٢١) أخرجه الحاكم والبيهقي.

(وَأَبْدَى مِمَّنْ جَعَلْتَ) قرنت (اسْمَهُ مَعَ اسْمِكَ أُمُورًا) أَيْ: أمور كثيرة، (فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ ذُو العَظَمَةِ الرَّحِيمِيَّة) : «صَدَقْتَ يَا آدَمُ (وَعِزَّتِي وَجَلَالِي) إِنَّهُ لَأُحِبُّ الْخَلْقِ إِلَيَّ»، وإذا سألتني بحق محمد أجبت لك. وأنه (لِيُعْلِمَهُ) علم الملإ الأعلى قبل خلق آدم بأنه حبيبي وأنه (عَظَمَة عَيْنِ الأَعْيَان) من أنبياء ورسل وملائكة كما في الحديث: «أَنَّ جِبْرِيلَ قَالَ لَهُ: أَبْشِرْ يَا مُحَمَّدُ فَإِنَّكَ خَيْرُ خَلْقِهِ وَمَبْعُوثُهُ مِنْ الْبَشَرِ، حَبَاكَ اللَّهُ بِمَا لَمْ يَحْبُ بِهِ أَحَدًا مِنْ خَلْقِهِ لَا مَلَكًا مُقَرَّبًا وَلَا نَبِيًّا مُرْسَلًا»[٢٢].

و(إِنَّهُ لَأَخِرُ النَّبِيِّينَ) أَيْ: ختم به النبوة والرسالة وأنه (مِنْ ذُرِّيَّتِكَ) و(لَولَاهُ مَا خَلَقْتُكَ) ولا خلقتُ الجنة ولا النار ولا أرضًا ولا سماءً ولا ثوابًا ولا عقابًا. وهذه (أَحْوَالاً تَشْرِيفِيَّة) أَيْ: تشريف لحبيبه الأعظم الذي تشرَّف به آدم ولأجله تابَ اللَّه عليه، وأسجدَ له ملائكته المُقرَّبين.

(وَقِيلَ) في بعض الروايات: (أَبَا مُحَمَّدٍ يُكَنَّى صَفِيُّ اللَّهِ آدَمُ كَان) أَيْ: صفي اللَّه آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ يُكَنَّى في الجنة بأبي محمد كرامةً له، (وَقَالَ) الرسول (عِيسَى) روح اللَّه (شَاهِدًا فِيهِ لَهُ) صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (وَلَسْتُ أَهْلاً أَنْ أُحْمَلَ حِذَاءَهُ) محَلَّهُ.

وقال بعضُ من الْقِسِّيسِين الذين أسلموا: ومما اتَّفق عليه الأربعة الذين كتبوا الأناجيل الأربعة: أن عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ [حين] رُفِع إلى السماء قال لِلْحَوَارِيِّينَ: إني ذاهبٌ إلى ربي وإلهي، أُبشِّركم برسول اللَّه

(٢٢) ذكره سبط ابن الجوزي في "مرآة الزمان" وابن حجر الهيتمي في "الفتاوى الحديثية".

يأتي من بعدي اسمه بَارَقْلِيط، -بلسان السُّرْيَانِيَّة وبالعربية أحمد-، قال الْقِسِّيسِين: هذا الاسم هو الذي كان سبب إسلامهم[٢٣].

وفيما أوحى اللَّه تعالى إلى عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: يا ابن البكر البتول آمن بأكرم النبيين وسيد المُرسلين حبيبي مُحمَّد بن عبد اللَّه، صاحب الجمل الأحمر والوجه الأقمر، سيد ولد آدم في الدنيا ويوم يلقاني، له في الميعاد شأن لا يبلغه أحد من النبيين، قال عيسى: إلهي مَنْ هو؟ قال: ارضَ فلك رضاي، قال: يا رب قد رضيت، قال: محمد بن عبد اللَّه رسول إلى الناس كافة، وأقرب الأنبياء إليَّ وسيلة وأخصّهم شفاعةً، طوبى ثم طوبى لأمته إذا كانوا على شريعته، في عرضه يُلحقون وتحت لوائه يحشرون، وفي كرامتي معه يدخلون، يحمده أهل الأرض ويستغفرون له أهل السماء، يفتح بالتكبير ويختم بالتسليم" اهـ ابن زكرى. ﴿وَأَنْبَاءً مَسْطُورِيَّة﴾.

﴿وَلَوْ أَنِّي أَخَذْتُ فِي النَّقْلِ﴾ من أقاويل وأخبار الرُّهْبَان والكَهَنة، ﴿لَتُهْتُ فِي﴾ بحث ﴿وُسْعِ هَذَا المَيْدَان﴾ أَيْ: المحل، ﴿وَقَدْرُهُ﴾ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿المُعَظَّمُ قَدِ اتَّضَحَ﴾ للعالَم ﴿قَبْلَ بُرُوزِه﴾ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿وَأَشْرَقَتْ أَنْوَارُهُ فِي﴾ الأكوان وسرى مدده في ﴿العَوَالِمِ﴾ حتى ظهر في زمنه ﴿بِالكُلِّيَّة﴾ روحًا وجسدًا، ﴿وَلَيْسَ يَحْصُرُ﴾ قَدْر ﴿ذَلِكَ إِلاَّ الْمَلِكُ الدَّيَّان﴾ الذي أكرمه وفضَّلهُ على سائر خلقه.

---

(٢٣) ذكره عبد اللَّه الميُورقي في "تحفة الأريب في الرد على أهل الصليب".

(اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ عَلَى الذَّاتِ المُحَمَّدِيَّة وَاغْفِر لَنَا مَا يَكُونُ وَمَا قَدْ كَانْ)

ثم شرَع رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ورفعهُ إلى أعلى الرُّتَب في ذكر النسب، وهو الباب الثالث جعلنا اللَّه لمَنْ كان لقدمِه وارث.

ثُمَ اعْلَمْ أَنَّ نَسَبَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سِلْسِلَةٌ ذَهَبِيَّة ۞ مُنَظَّمٌ كَالدُّرِّ المَعْرُوفِ بِالتَّشْرِيفِ عَلى كُلِّ الأَلْوَان ۞ فَهُوَ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ المُطَّلِبِ بْنِ هَاشِمٍ ذِي العِصَابَةِ الهَاشِمِيّة ۞ وَهُوَ ابْنُ عَبْدِ مَنَافٍ بِلَا خِلَافٍ وَلَا غَوَيَان ۞ ابْنِ قُصَيِّ بْنِ كِلَابِ بْنِ مُرَّةَ أَنْسَاباً قُرَشِيَّة ۞ ابْنِ كَعْبِ بْنِ لُؤَيِّ بْنِ غَالِبٍ بِضَبْطٍ وَحِفْظَان ۞ ابْنِ فِهْرِ بْنِ مَالِكِ بْنِ النَّضِر بْنِ كِنَانَةَ المَكْنُونِيَّة ۞ ابْنِ خُزَيْمَةَ بْنِ مُدْرِكَةَ بْنِ إِلْيَاسَ المُزَان ۞ ابْنِ مُضَرَ بْنِ نِزَارِ بْنِ مَعَدٍّ رَوَاهُ أَهْلُ النَّسَبِيَّة ۞ وَذلِكَ المَشْهُورُ بِأَنَّهُ ابْنُ عَدْنَان ۞ وَمَنْ زَادَ عَلَى هذَا فَقَدْ كَذَبَ كَمَا جَاءَ عَنْهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ فِي الأَخْبَارِ المَرْوِيَّة ۞ وَهذَا النَّسَبُ لَمْ يَكُنْ أَعْلَى مِنْهُ فِي العَرَبِ نَسَبٌ بِلَا نُكْرَان ۞

نَسَبٌ مِنَ الرَّحْمَنِ مَحْفُوظٌ فَلَا
يَلْحَقُهُ نَسَبٌ فِي الوُجُودِ مُبَرَّأُ
دُرٌ تَنَضَدَّ مِنْ قَدِيمٍ عَالِي
يَعْلُو عَلَى الجَوْزَاءِ نُورٌ أَسْنَأُ

وَهذَا النَّسَبُ لَمْ يَدْخُلْهُ سِفَاحٌ حِفْظاً مِنَ اللَّهِ فِي آبَائِه وَأُمَّهَاتِهِ مِنَ الأَوَّلِيَّة ۞ وَذَلِكَ لِحِفْظِ نُطْفَتِهِ الَّتِي شَرَّفَها قَدْرُهُ وَالشَّان ۞ بَلْ نِكَاحٌ مَضْبُوطٌ مِنْ أَبٍ وَأُمٍّ حِكَمٌ قَهَّارِيَّة ۞ وَذلِكَ مِنْ صُلْبٍ طَاهِرٍ إِلَى رَحِمٍ طَيِّبٍ لَمْ يَدْخُلْهُ الشُّبْهَان ۞ فَتَحَفَّظْ لِهَذِهِ الأَنْسَابِ الَّتِي هِيَ أَعْظَمُ أَنْسَابٍ أَصِيلِيَّة ۞ تَزْدَدْ قُرْباً وَمَحَبَّةً عِنْدَ هَذَا الرَّسُولِ المُعَان ۞ لِكَوْنِهِ مُعْتَنىً بِهِ كَمَا عُلِمَ تَحْقِيقاً مِنَ الحَضْرَةِ الرَّحَمُوتِيَّة ۞ فَيَنْبَغِي لَكَ التَّخَلُقُ بِأَخْلَاقِ الَّذِي بِالدِّينِ مُدَان ۞ وَتَعْلُو عَلَى سَائِرِ الأَجْنَاسِ بِحَوْزِكَ قُضُبَ الذَّهَبِ السَّبْكِيَّة ۞ وَتَنَالِ السُّمُوَّ بِمَدْحِ مِنْ فَاقَ سَائِرَ الإِنْسَ وَالجَان ۞

اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ عَلَى الذَّاتِ المُحَمَّدِيَّة ۞ وَاغْفِرْ لَنَا مَا يَكُونُ وَمَا قَدْ كَانْ

(ثُمَ اعْلَمْ) أيها المُخاطَب (أَنَّ نَسَبَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سِلْسِلَةٌ ذَهَبِيَّة) خالصة، (مُنَظَّمٌ كَالدُّرِّ) الجوهر النفيس (المَعْرُوفِ بِالتَّشْرِيفِ عَلَى كُلِّ الأَلْوَان) استعارة لكونه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خُلاصة بني آدم. وَعَنْ ابْنِ عُمَرَ: «إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ، فَاخْتَارَ الْعُلْيَا مِنْهَا فَأَسْكَنَهَا مَنْ شَاءَ مِنْ خَلْقِهِ، ثُمَّ خَلَقَ الْخَلْقَ فَاخْتَارَ بَنِي آدَمَ، وَاخْتَارَ مِنْ بَنِي آدَمَ الْعَرَبَ، وَاخْتَارَ مِنَ الْعَرَبِ مُضَرَ، وَاخْتَارَ مِنْ مُضَرَ قُرَيْشًا، وَاخْتَارَ مِنْ قُرَيْشٍ بَنِي هَاشِمٍ، وَاخْتَارَنِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ، فَأَنَا خِيَارٌ مِنْ خِيَارٍ»[٢٤].

(٢٤) أخرجه الطبراني والحاكم والبيهقي وأبو نعيم.

(فَهُوَ مُحَمَّدُ) صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (بْنُ عَبْدِ اللَّهِ) وكان أصغر ولد أبيه، وهو الذبيح الثاني المُفَدَّى بمائة من الإبل، وكان أجمل رجال قريش، تزوَّج بآمنة بنت وهب وهو ابن ثلاثين سنة، ولم يلد غيره صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وهو (ابْنُ عَبْدِ المُطَّلِبِ) اسمه شيبة يُقال لشيبة كانت في رأسه، يقال له شيبة الحمد لجوده، وإنما قيل له عبد المُطَّلِب لأن أباه هاشم لما مرَّ بالمدينة في تجارة نزل عند عمرو بن زيد البخاري الخزرجي كان سيد قومه فأعجبته بنت فخطبها إلى أبيها فتزوَّجها منه، وشرط عليه أن لا تلد إلا عنده، فخرج للشام في تجارة أخرى وتركها بالمدينة وهي حبلى أَيْ: حاملة، فمات بالشام فوضعت سلمى غلامًا فسمَّته شيبة، فأقام عند أخواله سبعة سنين، ثم جاء عمه المُطَّلِب فأخذه خفية من أخواله، فذهب به إلى مكة، فلما رآه الناس ورأوه على راحلته فقالوا: مَنْ هذا؟ فقال: عبدي، فجعلوا يقولون: عبد المُطَّلِب وغلب عليه، وساد في قريش سيادة عظيمة، وكان جُلّ أمورهم إليه، وكان صاحب السقاية، وكان أول مَنْ حَلَّى الكعبة بذهب من أبوابها.

وهو (ابْنُ هَاشِمٍ) واسمه عمرو وسُمِّي هاشمًا لهشمه الثريد مع اللحم لقومه في زمن المَحَل، وهو أول من سَنَّ رحلتيْ الشتاء والصيف، وحُكِيَ أنه توأم عبد شمس، وأن هاشمًا خرج ورجلَيْه ملتصقة برأسه فما تخلَّص حتى خرج بينهما دم، فقال الناس: يكون بين أولادهما حروب، فكانت

واقعة بين العباس مع بني أمية عبد شمس سنة اثنين وثلاثين ومائة. (ذِي العِصَابَةِ الهَاشِمِيّة) أهل بيت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذين تَحْرُمُ عليهم الصدقتَيْن.

(وَ) هاشم (هُوَ ابْنُ عَبْدِ مَنَافٍ) واسمه المُغيرة سادَ في زمن أبيه وهو أكبر ولده، وإليه السقاية وكان يقال له قمر البطحاء. (بِلَا خِلَافٍ وَلَا غَوَيَان) ولا زيادة.

هو (ابْنُ قُصَيٍّ) اسمه زيد، وسُمِّي بذلك لما بغت خزاعة على قريش وأخذت منهم البيت، وتزوَّج ربيعة بنت خزام بأم قصي وهو صغير، ولما كبر شيّعت قريش وجهها من متفرقات البلاد، وأزاح يد خزاعة من البيت وأجلاهم من مكة، وصار رئيس قريش على الإطلاق، وهو الذي سَنَّى السقاية ودار الندوة واللواء.

وهو (ابْنُ كِلَابِ) اسمه حكيم، ولُقِّب بذلك لمحبته لكلاب الصيد.

وهو (ابْنُ مُرَّةَ) بضم الميم وتشديد الراء: تُسَمِّي به العرب في الجاهلية ولدها تفاؤلاً بأن يكون عند الحرب مُرٌّ بين الأبطال. (أَنْسَابًا قُرَشِيَّة) لكونه أكثر فروع قريش تجتمع فيه، وهو أخو هصيص.

وهو (ابْنُ كَعْبِ) من كعب الإنسان إذا ارتفع، سُمِّي لارتفاعه على قومه، وهو كان الذي يخطب قومه في كل يوم جُمُعة، ويبشِّرهم بمبعث رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهو أول من قال: أما بعد.

وهو (ابْنُ لُؤَيٍّ) بضم اللام بالهمزة، ودونه تصغير اللأي وهو الثور الوحشي.

وهو (ابْنُ غَالِبٍ) من الغلب وكُنيته ابن تميم، وهو الحارث ومحارب، وذكر ذلك رواة الحديث (بِضَبْطٍ وَحِفْظَان) من الأئمة الأكفاء.

وهو (ابْنُ فِهْرٍ) بكسر الفاء وسكون الهاء: الحجر الأملس. وقيل: اسمه قريشًا ومنه قُريش على الأصح.

وهو (ابْنُ مَالِكٍ) وكنيته أبو الحارث، وأخوانه الصلت ومخلد.

وهو (ابْنُ النَّضْر) بفتح النون وسكون المعجمة: لنضارة وجهه وهو الذي إليه جماع قريش.

وهو (ابْنُ كِنَانَةَ) بكسر الكاف: لأنه ستر إلى قومه والكنانة: الجعبة، (المَكْنُونِيَّة) الساترة للسهام.

وهو (ابْنُ خُزَيْمَةَ) أخو هزيل، تصغير خَزَمَة بفتح المعجمة مَنْ خزمته فهو مخزوم: إذا أدخلت في أنفه الخزام. وروى ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أنه مات على ملة إبراهيم.

وهو (ابْنُ مُدْرِكَةَ) بضم وسكون: واسمه [عمرو].

وهو (ابْنُ إِلْيَاسَ المُزَان) وهو أوَّل مَنْ هدى إلى البيت البدن، وورَد عن النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «لَا تَسُبُّوا إِلْيَاسَ فَإِنَّهُ كَانَ مُؤْمِنًا»[٢٥]، ويقال أنه يُسمَع في صلبه تلبية المُصْطَفَى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالحَجِّ.

---

(٢٥) أخرجه ابن سعد وذكره السهيلي في "الرّوْضِ الْأُنُفِ".

وهو (ابْنُ مُضَرَ) روى ابن المسيب: «أنه كان على ملة إبراهيم».

وهو (ابْنُ نِزَارِ) بكسر النون من الزاي أَيْ: لقلة لأنه كان فريد عصره، واسمه خلدان.

وهو (ابْنُ مَعَدٍّ) بفتح الميم المهملة: [كنيته أبو قضاعة]. وقال السُّهَيْلِيّ: وأوحى الله إلى النبي أَرْمِيَا [أن] أحمله على البُراق إلى بلاد العراق، فإنه مخرج من صلبه نبيًّا اسمه محمد[٢٦]. (رَوَاهُ) العلماء (أَهْلُ النَّسَبِيَّة وَذلِكَ المَشْهُور) انتهى نسبه (بِأَنَّهُ ابْنُ عَدْنَان) بوزن فَعْلَان من عَدَنَ إذا أقام. وروى ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «مات عدنان ومعد وربيعة على ملة إبراهيم فلا تذكروهم إلا بخير»[٢٧].

وَهَذَا النَّسَبُ بِهَذِهِ الصِّفَةِ لَا خِلَافَ فِيهِ بَيْنَ الْعُلَمَاءِ، فَجَمِيعُ قَبَائِلِ الْعَرَبِ الْحِجَازِيين يَنْتَهُونَ إِلَى هَذَا النَّسَبِ، وَلِذَلِكَ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وَغَيْرُهُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾[الشورى: ٢٣]، وَلَمْ يَكُنْ بَطْنٌ مِنْ بُطُونِ قُرَيْشٍ إِلَّا وَلِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَسَبٌ يَتَّصِلُ بِهِمْ[٢٨]. وَصَدَقَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فِيمَا قَالَ وَأَزْيَدَ مِمَّا قَالَ، وَذَلِكَ أَنَّ جَمِيعَ قَبَائِلِ الْعَرَبِ الْعَدْنَانِين تَنْتَهِي إِلَيْهِ بِالْآبَاءِ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ بِالْأُمَّهَاتِ، كَمَا ذَكَرَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ وَغَيْرُهُ.

---

(٢٦) ذكره القرطبي في "تفسيره".

(٢٧) قال ابن حجر: رواه أبو جعفر بن حبيب في تاريخه "المحبر".

(٢٨) أخرجه أحمد والنسائي والطبراني والطبري.

(وَمَنْ زَادَ عَلَى هذَا) قال ابن دحية: أجمع العلماء والإجماع حُجَّة على أنه إذا انتسب لم يجاوز عدنان. ومن جاوزه (فَقَدْ كَذَبَ كَمَا جَاءَ عَنْهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الأَخْبَارِ المَرْوِيَّة) في "الفردوس" عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا «أَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا انْتَسَبَ لَمْ يُجَاوِزْ مَعْدَ بْنَ ثُمَّ يُمْسِكُ وَيَقُولُ: كَذَبَ النَّسَّابُونَ».

ولكن قال السُّهَيْلِيُّ: والأصح أن هذا من قول ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كان إذا قرأ ﴿وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ﴾[إبراهيم: ٩] قال: كذب النَّسَّابُون[٢٩]. لأن هذا من أقوال المُؤرخون الذي لا دليل عليه، ولذلك أنكر الإمام مالك عمَّن رفع نسبه إلى آدم.

(وَهذَا النَّسَبُ لَمْ يَكُنْ أَعْلَى مِنْهُ فِي العَرَبِ) مَنْ تكلَّمت في العربية سجية لا من طرأت عليه. (نَسَبٌ بِلَا نُكْرَان) نسبه في الجاهلية معروف عند القبائل من قريش ومُضر وكنانة، وشهد بذلك من أبي سفيان كما سأله هرقل ملك الروم عن صفات المُصْطَفَى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «قَالَ: كَيْفَ نَسَبُهُ فِيكُمْ؟، قُلْتُ: هُوَ فِينَا ذُو نَسَبٍ، قَالَ هِرَقْلُ: كَذَلِكَ الرُّسُلُ تُبْعَثُ فِي أَحْسَابِ قَوْمِهَا»[٣٠] أَيْ: أكرمهم قبيلة.

(نَسَبٌ مِنَ الرَّحْمَنِ مَحْفُوظ) لم يلحقه طعن ولا نقصان، (فَلَا يَلْحَقُهُ) أيضًا سفاح. ([نَسَبٌ] فِي الوُجُودِ) من لدن آدم (مُبَرَّأ) من الآباء والآمهات.

---

(٢٩) عزاه السيوطي في "الدر المنثور" إلى ابن أبي شيبة وابن المنذر.

(٣٠) أخرجه البخاري ومسلم وأحمد وعبد الرزَّاق والطبراني.

(دُرٌ تَنَضَدَّ) بصفاء الألوان استعارة من كون نسبه (مِنْ قَدِيمٍ) سابق أجداده هو (عَالِي) طاهر من التشويب، (يَعْلُو) بقوة (عَلَى الجَوْزَاءِ) من صفاته التي هي (نُور أَسْنَأُ).

(وَهذَا النَّسَبُ) حيث ما كان (لَمْ يَدْخُلْهُ سِفَاحٌ) وهو التناكح من غير عقد ولا عصمة، لأن الجاهلية يسافحون المرأة زمنًا ثم يتزوجونها، (حِفْظاً مِنَ اللَّهِ فِي آبَائِهِ وَأُمَّهَاتِهِ) صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (مِنَ الأَوَّلِيَّة) من آدم إلى آخر آبائه إشارةً إلى حديث الطبراني وابن عساكر: «خَرَجْتُ مِنْ نِكَاحٍ وَلَمْ أَخْرُجْ مِنْ سِفَاحٍ مِنْ لَدُنْ آدَمَ إِلَى أَنْ وَلَدَنِي أَبِي وَأُمِّي، وَلَمْ يُصِبْنِي مِنْ سِفَاحِ أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ».

(وَذَلِكَ لِحِفْظِ نُطْفَتِهِ) في أصلابهم وهي (الَّتِي شَرَّفَهَا) اللَّه وعظَّم (قَدْرُهُ) صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، (وَالشَّان) أَيْ: بشأنه عند اللَّه، (بَلْ) هو صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (نِكَاحٌ مَضْبُوطٌ) بالعصمة الإلهية، (مِنْ أَبٍ [وَأُمٍّ]) وإلى ابن، وفي بعض النسخ: من أَبٍ، (حِكَم) من الرب (قَهَّارِيَّة) بحيث لم يطرق أحد من آبائه وأمهاته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من أمر الجاهلية.

(وَذلِكَ) أن اللَّه سبحانه وتعالى ينقله مِنْ (صُلْبٍ [طَاهِرٍ]) أَيْ: من السفاح (إِلَى) أُمٍّ ذات (رَحِمٍ طَيِّبٍ) محض (لَمْ يَدْخُلْهُ الشُّبْهَان) من نكاح أو مِلْك. ووردت الأحاديث في ذلك كثيرة: كحديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا افْتَرَقَ النَّاسُ فِرْقَتَيْنِ إِلَّا جَعَلَنِي اللَّهُ فِي خَيْرِهِمَا، فَأُخْرِجْتُ مِنْ بَيْنِ أَبَوَيَّ، فَلَمْ يُصِبْنِي شَيْءٌ مِنْ عَهْدِ الْجَاهِلِيَّةِ،

وَخَرَجْتُ مِنْ نِكَاحٍ وَلَمْ أَخْرُجْ مِنْ سِفَاحٍ مِنْ لَدُنْ آدَمَ حَتَّى انْتَهَيْتُ إِلَى أَبِي وَأُمِّي، فَأَنَا خَيْرُكُمْ نَفْسًا وَخَيْرُكُمْ أَبًا»[٣١].

ومن وجه آخر: قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ اللَّهَ أَخْرَجَنِي مِنْ نِكَاحٍ، وَلَمْ يُخْرِجْنِي مِنْ سِفَاحٍ»[٣٢]. وَعَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ: أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «خَرَجْتُ مِنْ نِكَاحٍ وَلَمْ أَخْرُجْ مِنْ سِفَاحٍ، مِنْ لَدُنْ آدَمَ إِلَى أَنْ وَلَدَنِي أَبِي وَأُمِّي، وَلَمْ يُصِبْنِي مِنْ سِفَاحِ الْجَاهِلِيَّةِ شَيْءٌ»[٣٣]. وَعَنْ [ابْنِ عَبَّاسٍ] رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا وَلَدَنِي مِنْ نِكَاحِ أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ شَيْءٌ، وَإِنَّمَا وَلَدَنِي إِلَّا نِكَاحٌ كَنِكَاحِ الْإِسْلَامِ»[٣٤].

(فَتَحَفَّظْ) أيها المُكَلَّف (لِهَذِهِ الأَنْسَابِ) بأن تعتقد أنها مُبَرَّأَةٌ من كل شُبهة (الَّتِي هِيَ أَعْظَمُ أَنْسَاب) العرب، بل مصفية (أَصِيلِيَّة). قال العلماء: من الاعتقاد الواجب أن يعتقد أن النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من العرب، وأنه من قريش، ونسبه مُبَرَّأٌ من سفاح الجاهلية، كما تواترت النصوص بذلك.

واعتَقِدْ هذا (تَزْدَدْ) إيمانًا و(قُرْبًا وَمَحَبَّةً عِنْدَ هَذَا الرَّسُولِ) العظيم (المُعَان) أَيْ: المُستعان بالحق على كل حال، (لِكَوْنِهِ) صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (مُعْتَنىً

---

(٣١) أخرجه الحاكم والبيهقي والديلمي وابن عساكر.

(٣٢) أخرجه البيهقي وابن عساكر.

(٣٣) أخرجه الآجري والديلمي وأبو نعيم.

(٣٤) أخرجه الطبراني والثعلبي والبيهقي وابن عساكر.

بِـهِ كَمَـا عُلِـمَ تَحْقِيقًـا) بالنُّصُوص الصريحة (مِـنَ الحَضْـرَةِ الرَّحَمُوتِيَّـة) أَيْ: مُعتنًى به بالمحبة والخُلَّة في حضرة الرحمن.

فإن عَرَفْتَ أيها المُكَلَّف عظمة هذا الرسول عند اللَّه وتحقَّقت مكانته عند مولاه وعامة محامد أوصافه، (فَيَنْبَغِي لَكَ) أَيْ: على الوجوب الاقتداء به و(التَّخَلُقُ بِأَخْلَاقِـهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهو (الَّـذِي بِالـدِّينِ) الحنيفِيّ (مُـدَان) أَيْ: مدين به. (وَ) إذا تخلّقتَ بأخلاقه وسلكتَ المحبة فيه (تَعْلُـو) أَيْ: ترتفع بذلك (عَلَـى سَـائِرِ الأَجْنَـاسِ) من إنس وجن، (بِحَـوْزِكَ) تمليك بمحبة (قُطُـب) الوجود الذي فيه كَـ(الـذَّهَب السَّـبْكِيَّة) لأنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حلية العالَم وعروس المملكة، (وَتَنَـلِ السُّـمُوَّ) ارتفاع المقام (بِمَـدْح مِنْ فَاقَ) الفضائل المحمود على (سَائِر الإِنْسَ وَالجَـان) والملائكة.

(اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ عَلَى الذَّاتِ المُحَمَّدِيَّة وَاغْفِر لَنَا مَا يَكُونُ وَمَا قَدْ كَانْ)

ثُمَّ اعْلَمْ أَنَّ تِلْكَ اللَّمْعَةَ المُفَخَّمة المُعَظَّمَةَ المُكَمَّلَةَ النُّورِيَّة ۞ انْتَقَلَتْ مِنْ وَجْهِ آدَمَ لِوَجْهِ ابْنِهِ شِيثٍ كَمَا رَوَاهُ أَهْلُ الإِتْقَان ۞ وَلَمْ تَزَلْ تَنْتَقِلُ إِلَى أَنْ جَاءَتْ فِي جَبْهَةِ عَبْدِ اللَّهِ لِسُبُوقِ العِنَايَةِ الأَزَلِيَّة ۞ فَوَضَعَهَا فِي آمِنَةَ بِنْتِ وَهْبٍ أُمِّ سَيِّدِ العُجْمِ وَالعُرْبَان ۞ فَكَانَتْ تَرَى مِنَ العَجَائِبِ فِي حِينِ حَمْلِهَا بِهِ عَلَيْهِ أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ وَالتَّحِيَّة ۞ مَا يَقْصُرُ عَنْهُ فِي الحَقِيقَةِ تَعْبِيرُ اللِّسَان ۞ وَنَاهِيكَ بِمَنْ فِي بَطْنِهَا الَّذِي هُوَ مُتَعَشِّقَةٌ بِهِ الْعَوَالِمُ المُلْكِيَة ۞ وَلَمْ يَبْقَ شَيْءٌ إِلَّا وَهُوَ مُنَاظِرٌ لِبُرُوزِ خَيْرِ الصِّبْيَان ۞ وَكَذَلِكَ اسْتِشْرَافُ ظُهُورِهِ وَاقِعٌ لِلعَوَالِمِ المَلَكُوتِيَّة ۞ وَهِيَ أَهْلٌ لِلتَّشَرُّفِ بِخَيْرِ مَنْ عَرَجَهَا وَنَالَتْ بِهِ الأَمَان ۞ وَجَاءَهَا آدَمُ فِي الشَّهْرِ الأَوَّلِ وَبَشَّرَها بِأَنَّهَا حَمَلَتْ بِخَيْرِ من يَمْشِي عَلَى الأَرْضِيَّة ۞ وَقَصْدُهُ التَّشَرُّفُ بِهِ فَرَحاً وَسُرُوراً وَقَدْ كَان ۞ وَلَمْ تَزَلْ فِي كُلِّ شَهْرٍ تَرَى نَبِيّاً مِنَ الأَنْبِيَاءِ أَهْلِ العَزَائِمِ العَزْمِيَّة ۞ فَيُبَشِّرُهَا بِهِ بِعِبَارَةٍ أُخْرَى لِيَتِمَّ لَهَا الِاطْمِئْنَان ۞ فَبُشْرَى لَنَا أَجْمَعِينَ بِهِ وَبِكَمَالَاتِهِ الَّتِي هِيَ أَعْظَمُ أُمْنِيَّة ۞ وَهَنِيئاً لَنَا بِقُدُومِهِ وَلِسَائِرِ الأَكْوَان ۞ فَوَ اللَّهِ إِنَّهَا لَمِنْ أَعْظَمِ الأَوْقَاتِ الَّتِي أُعْطِيَتْهَا جَمِيعُ البَرِيَّة ۞ إِذْ بَانَتْ بِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ طُرُقُ الحَقِّ وَاضْمَحَلَّتْ سُبُلُ الخُسْرَان ۞

اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ عَلَى الذَّاتِ المُحَمَّدِيَّة ۞ وَاغْفِر لَنَا مَا يَكُونُ وَمَا قَدْ كَانْ

وشرَعَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وعَزَّهُ بعنايته الكاملة فيمن كانت تراه آمنة، وهو الباب الرابع أصلحنا اللَّه بمدده الساطع:

(ثُمَّ اعْلَمْ) أَيْ: المُكَلَّف (أَنَّ تِلْكَ اللَّمْعَة) التي كانت تتلألأ في جبين آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهي (المُفَخَّمَة) بأنوار الجمال (المُعَظَّمَة) بهيبة الجلال (المُكَمَّلَة) بمحامد الخصال (النُّورِيَّة) أَيْ: المُقتبسة من الأنوار الصمدانية وهي التي من أجلها سجد الملائكة لأبي البشر، (انْتَقَلَتْ مِنْ وَجْهِ آدَمَ) عَلَيْهِ السَّلَامُ (لِوَجْهِ ابْنِهِ شِيثٍ) بعد ما ولده، (كَمَا رَوَاهُ) ذلك (أَهْل الإِتْقَان)، كرواية الطبراني وأبي نُعَيْم وابن عساكر: قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «خَرَجْتُ مِنْ نِكَاحٍ، وَلَمْ أَخْرُجْ مِنْ سِفَاحٍ، مِنْ لَدُنْ آدَمَ إِلَى أَنْ وَلَدَنِي أَبِي وَأُمِّي، وَلَمْ يُصِبْنِي مِنْ سِفَاحِ الْجَاهِلِيَّةِ شَيْءٌ». وروى أبو نُعَيْم: «لَمْ يَلْتَقِ أَبَوَايَ قَطُّ عَلَى سِفَاحٍ، لَمْ يَزَلِ اللَّهُ يَنْقُلُنِي مِنَ الْأَصْلَابِ الطَّيِّبَةِ إِلَى الْأَرْحَامِ الطَّاهِرَةِ مُصَفًّى مُهَذَّبًا، لَا تَنْشَعِبُ شُعْبَتَانِ إِلَّا كُنْتُ فِي خَيْرِهِمَا».

(وَلَمْ تَزَلْ) هذه اللمعة (تَنْتَقِلُ) من أبٍ كريمٍ إلى كريمٍ (إِلَى أَنْ جَاءَتْ فِي جَبْهَةِ عَبْدِ اللَّهِ) ابن عبد المُطَّلِب، وذلك (لِسُبُوقِ العِنَايَةِ الأَزَلِيَّة) له بأنه يكون خير البرية.

تنبيهٌ: إن آدم ولَدَ من حواء أربعين ولد في عشرين بطنًا إلا شيث، فإنه وُلد مُنفرِدًا كرامةً له لكون مُحَمَّد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من نسله، ثم لما توفِّيّ شيث وصَّى ابنه بوصية أبيه آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ له: أن لا يضع هذا النور الذي كان بجبهة آدم -الذي انتقل إلى شيث- إلا في المُطهَّرات من

النساء، ولم تزل هذه الوصية معمول بها في القرون إلى أن وصل ذلك النُّور لجبهة عبد المطلب ثم ولد عبد اللَّه[٣٥].

(فَوَضَعَهَا) هو (فِي آمِنَةَ بِنْتِ وَهْبٍ) بن عبد مناف (أُمّ) رسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (سَيِّد) ولد آدم المبعوث على سائر (العُجْمِ) بفتحتين أو ضم فسكون: مَنْ تكَلَّم العجمية سجيةً لا من تَعلُّم، (وَالعرْبَان) كوديان جمعه عربان وأعراب: هو مَنْ تكَلَّم بالعربية سجيةً لا من تَعلُّم.

قيل: أن عبد المطلب لما فدى ابنه عبد اللَّه بمائة من الإبل حين نذر وسلم عبد اللَّه، كما قُدِّر في الأزل من خروج خاتم النبيين من صلبه، فزوَّجه أبوه أشرف عقيلة قريش آمنة بنت وهب ودخل بها عبد اللَّه وأفضى إليها، وحملت برسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقد كانت أم قتال أخت ورقة بن نوفل تعرض نفسها لعبد اللَّه ليتزوجها لما كانت تسمع من أخيها البشارات بوجود محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ورأت النور بين عينَيْ عبد اللَّه فامتنع هو، ولما انتقل النور إلى آمنة وطلبها عبد اللَّه، فقالت: لا حاجة لي.

ولما انتقل في آمنة (فَكَانَتْ تَرَى مِنَ العَجَائِبِ فِي حِينِ حَمْلِهَا بِهِ عَلَيْهِ أَفْضَلُ) وأكمل (الصَّلَاة وَ) أتمُّ (السَّلَام) (وَ) أنمى (التَّحِيَّة مَا يَقْصُرُ) يَكِلُّ (عَنْهُ فِي الحَقِيقَةِ تَعْبِيرُ اللِّسَان) ولم يكن تفسير ما رأت آمنة على التفصيل، وإدراك ذلك على الحقيقة ما يفهم الحاذق الفَهِم.

---

(٣٥) ذكره القسطلاني في "المواهب اللدنية".

قال ابن إسحاق: كَانَتْ آمنة بنت وهب تُحدِّثُ بِمَا رَأَتْ أَنَّهَا أُتِيَتْ حِينَ حَملت بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقِيلَ لَهَا: أَنَّكِ حَمَلْتِ بِسَيِّدِ هَذِهِ الْأُمَّةِ، فَإِذَا وَقَعَ إِلَى الْأَرْضِ فَقُولِي:

أُعِيـــــذُهُ بِالْوَاحِـــــدْ ... مِـــنْ شَـــرِّ كُـــلِّ حَاسِـــدْ
مِـــنْ كُـــلِّ خَلْـــقٍ رَائِـــدْ ... مِـــــنْ قَـــــائِمٍ وَقَاعِـــــدْ
عَـــنِ السَّـــبِيلِ حَائِـــدْ ... عَلَـــى الْفَسَـــادِ جَاهِـــدْ
هَـــذَا وَكُـــلِّ عَبْـــدٍ رَائِـــدْ ... يُرِيـــــدُ فَخْـــــرٌ زَائِـــــدْ
فَإِنَّـهُ عَبْـدُ الْحَمِيـدِ الْمَاجِـدْ ... حَتَّى أَرَاهُ قَدْ أَتَى الْمَشَاهِدْ

وَآيَةُ ذَلِكَ أَنْ يَخْرُجَ مَعَهُ نُورٌ يَمْلَأُ قُصُورَ بُصْرَى مِنْ أَرْضِ الشَّامِ، فَإِذَا وَقَعَ فَسَمِّيهِ مُحَمَّدًا[٣٦].

(وَنَاهِيكَ بِمَنْ) حَلَّ (فِي بَطْنِهَا الَّذِي هُوَ) أكرم الخلق على الإطلاق وسعة، (مُتَعَشِّقَة) بالمحبَّة (بِهِ) جميع (الْعَوَالِم المُلْكِيَة) وهو العالَم الظاهر الذي يُدرَك بالحس والوهم. (وَلَمْ يَبْقَ شَيْءٌ إِلَّا وَهُوَ مُنَاظِرٌ لِبُرُوزِ) ظهور (خَيْر) الأنام وأعقل (الصِّبْيَان) المُتأدِّب بالآداب الإلهية من غير تربية أحد، وقد استبشروا به الملائكة.

(وَكَذَلِكَ اسْتِشْرَاف) في قرب (ظُهُورِهِ) صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (وَاقِع لِلعَوَالِمِ المَلكُوتِيَّة) العالَم الباطن وهو ما يُدرَك بالعقل والفهم، (وَهِيَ أَهْلٌ) أَيْ: تولى من أهل الأرض لأن عالم الملكوت لهم العلم الضروري به

---

(٣٦) ذكره ابن إسحاق في "سيرته" وأخرجه البيهقي وابن عساكر.

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأنه قد أطل زمانه، وعالَم الأرض ليس كذلك إلا القليل منهم أو أنهم ينقل الأرض مر منهم إلى الأرض فهم مُتَيَقِّنُون (بِخَيْرِ مَنْ عَرَجَهَا) أَيْ: عالَم الملكوت، (وَنَالَتْ بِهِ الأَمَان) من الكريم المَنَّان، كما في الحديث: ((أَنَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لِجِبْرِيلَ: هَلْ أَصَابَكَ مِنْ هَذِهِ الرَّحْمَةِ؟، قَالَ: نَعَمْ، كُنْتُ أَخْشَى الْعَاقِبَةَ فَأَمِنْتُ لِثَنَاءِ اللَّهِ بِقَوْلِهِ: ﴿مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾[التكوير: ٢١]))[٣٧].

(وَجَآءَهَا آدَمُ) عَلَيْهِ السَّلَامُ (فِي الشَّهْرِ الأَوَّلِ) من حملها زائرًا لما في بطنها، (وَبَشَّرَهَا) وبارك لها وأخبرها (بِأَنَّهَا حَمَلَتْ بِخَيْرِ) أَيْ: بأفضل (مَنْ يَمْشِي عَلَى الأَرْضِيَّة) ومَنْ مشى، (وَقَصْدُهُ) بزيارته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (التَّشَرُّفُ بِهِ) صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لكونه من ذريته وحبيب ربه، و(فَرَحًا وَسُرُورًا) بظهور خاتم النبيين، (وَقَدْ كَان) في ليلة الحمل به صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يبق دارٌ إلا تشرَّف ولا مكان إلا ودخله النور، ولا دابة إلا ونطقت، كما في "المواهب".

(وَلَمْ تَزَلْ) آمنة (فِي كُلِّ شَهْرٍ تَرَى) في منامها (نَبِيًّا مِنَ الأَنْبِيَاءِ) من كبار الرسل (أَهْل العَزَائِم العَزْمِيَّة) أَيْ: الصابرين الثابتين على أمر اللَّه، وهم عشرةٌ: نوح وإبراهيم الخليل والكليم موسى وعيسى روح اللَّه وداود وأيوب ويعقوب وإسماعيل ويوسف ومحمد عَلَيْهِ وَعَلَيْهِمْ الصَّلَاةُ

(٣٧) ذكره السمرقندي في "تفسيره" والقاضي عياض في "الشفا".

وَالسَّلَامُ، كما أن أشهر الولادة عشر ويأتيها كل شهر واحد من هؤلاء الأخيار، وجاءها في الأول آدم والتسعة بعده إلى تمام الحمل.

(فَيُبَشِّرُهَا بِهِ) كُلٌّ منهم (بِعِبَارَةٍ) [كلامٍ] (أُخْرَى) غير التي أخبر بها الأول، وذلك (لِيَتِمَّ لَهَا الِاطْمِئْنَان) اليقين بأنها حملت بنَبِيٍّ كريم، (فَبُشْرَى لَنَا) معشر الأمة المُحمَّديَّة (أَجْمَعِينَ بِهِ) بدخولنا في ملة هذا الحمى العظيم، (وَبِكَمَالَاتِهِ) المُتشرَّف بها على سائر الأنبياء، (الَّتِي هِيَ أَعْظَمُ أُمْنِيَّة) أَيْ: أعظم لمَنْ تمسَّك بمحبته لبلوغ المنى، (وَهَنِيئًا لَنَا بِقُدُومِهِ) إلينا بالرسالة والملة الغرَّاء، (وَلِسَائِرِ) جميع (الأَكْوَان) المُرسَل إليهم بهذا الزمان.

(فَوَ اللَّهِ إِنَّهَا) أَيْ: الزمان التي بُعِث فيه (لَمِنْ أَعْظَمِ الأَوْقَاتِ الَّتِي أُعْطِيَتْهَا) أُرْسِلت فيها الرحمة، (جَمِيع البَرِيَّة) الأنبياء وأكملهم، وشاهد هذا قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «بُعِثْتُ مِنْ خَيْرِ قُرُونِ بَنِي آدَمَ»[٣٨]. (إِذْ بَانَتْ) ظهرت (بِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ طُرُقُ) سُبُل (الحَقِّ) دين الإسلام، (وَاضْمَحَلَّتْ) ذابت (سُبُل) طُرُق (الخُسْرَان) الكفر والعصيان.

وقد ذُكِر لما حملت آمنة بسيدنا مُحَمَّد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نُودِي في الملكوت ومعالم الجبروت: أن عطِّرُوا جوامع الأُنْس وبَخِّرُوا جهات الشرف الأعلى، وافرشوا سجادات العبادات في صفف الحق للملائكة

(٣٨) أخرجه البخاري وأحمد وأبو نعيم والبيهقي والديلمي.

المُقرّبين أهل الوفاء، وقد انتقل النور المكنون إلى بطن أمه آمنة ذات الفخر الباهر والعقل المصون[٣٩].

وروى الخطيب البغدادي: لما أراد اللَّه خلق مُحمَّد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في بطن أمه كانت ليلة جُمُعة في رجب، أمر اللَّه عَزَّ وَجَلَّ في تلك الليلة رضوان خازن الجنان أن يفتح الفردوس وينادي مناد في السماوات والأرض: ألا إن النور المخزون الذي يكون منه النبي الهادي يستقر في هذه الليلة في بطن أمه الذي يتم خلقه، ويخرج إلى الناس بشيرًا ونذيرًا.

تَتِمَّةٌ: لك أن تأخذ من قول المُصنِّف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن آباء النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غير الأنبياء وأمهاته من لدن آدم وحواء ليس فيهم كافر، ولا يقال إلا أنه مختار وكريم وطاهر، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾[التوبة: ٢٨]، وتقدَّمت الأحاديث أنهم مختارون وأن الآباء كرام والأمهات طاهرات.

وأيضًا قوله تعالى: ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾[الشعراء: ٢١٩] على أحد التفاسير فيها: أن المراد تنقُّل نوره صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من ساجد إلى ساجد، وهذا صريحٌ في أَبَوَيْ النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عبد اللَّه وآمنة من أهل الجنة لأنهم أقرب المُختارين إليه، وهذا هو الحق. قاله ابن حجر.

(اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ عَلَى الذَّاتِ المُحَمَّدِيَّة وَاغْفِر لَنَا مَا يَكُونُ وَمَا قَدْ كَانْ)

---

(٣٩) ذكره القسطلاني في "المواهب اللدنية".

وَلَمَّا جَاءَ شَهْرُ وِلَادَتِهِ الَّتِي هِيَ أَعْظَمُ عَطِيَّةً مِنَ المَلِكِ الحَقِّ الْمُتَفَضِّلِ بِتِلْكَ الهَدِيَّة ۞ أَخَذَتْ آمِنَةُ فِي أَتْعَابِ الوِلَادَةِ وَهِيَ كَلَا شَيْءَ بِالنِسْبَةِ لِمُعَالَجَةِ النِّسْوَان ۞ وَلَمْ تَزَلْ وَهِيَ فِي ذَلِكَ تَتَرَاكَمُ عَلَيْهَا الأَعْرَافُ العِطْرِيَّة ۞ وَتَزْدَادُ بُشْرَى بِقُرْبِ ظُهُورِ مُنَوِّرِ سَائِرِ البُلْدَان ۞ وَحَضَرَهَا فِي لَيْلَةِ الوِلَادَةِ بَعْضٌ مِنَ الحُورِ العِينِيَّة ۞ وَكَذَلِكَ مِنَ النِّسَاءِ آسِيَةُ وَمَرْيَمُ ابْنَةُ عِمْرَان ۞ فَاشْتَدَّ بِهَا الطَّلْقُ لِتَمَامِ المُدَّةِ فِي لَيْلَةِ الِاثْنَيْنِ المَطْلِيَّة ۞ بِأَنْوَارٍ وَأَسْرَارٍ وَحِكَمٍ وَرَحْمَةٍ وَرَأْفَةٍ وَغُفْرَان ۞ وَكَانَتْ إِذْ ذَاكَ حَاضِرَةً عِنْدَهَا أُمُّ عُثْمَانَ ابْنِ أَبِي العَاصِ ذَاتُ الحُظُوظِ الْهَنِيَّة ۞ وَالشَّفَّاءُ أُمُّ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ سَيِّدِ أَهْلِ الشُّكْرَان ۞ فَاشْتَدَّ بِهَا الطَّلْقُ فَوَضَعَتْهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ۞ مَخْتُونًا حِكْمَةً رَبَّانِيَّة ۞ شَاخِصًا بِبَصَرِه إِلَى السَّمَاءِ فَنَسْأَلُكَ اللَّهُمَّ سَتْرَ الدَّارَان ۞ وَقَدْ حَكَتْ أُمُّهُ عِنْدَ ذَلِكَ أُمُوراً نُورَانِيَّة ۞ وَخُرُوجَ نُورٍ مَعَهُ سَطَعَ فِي الأُفُقَان ۞ وَقَالَتْ أُمُّ عُثْمَانَ تَدَلَّتِ النُّجُومُ وَلَمْ تَنْظُرْ عِنْدَ وِلَادَتِه إِلَّا أَنْوَاراً عُمُومِيَّة ۞ وَذَلِكَ أَنَّهَا عَمَّتْ فِي سَائِرِ الكِيَان ۞ وَقَالَتْ أُمُّ عَبْدِ الرَّحْمَنِ لَمَّا سَقَطَ عَلَى يَدَيَّ وَاسْتَهَلَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مَقْرُونَتَانِ بِالزَّكِيَّة ۞ سَمِعْتُ قَائِلاً يَقُولُ رَحِمَكَ اللَّهُ فَيَا هَنِيئاً لَهَا بِتِلْكَ المَجْلِسَان ۞ وَأَضَاءَ لَهَا مَا بَيْنَ المَشْرِقِ وَالمَغْرِبِ مِنْ أَنْوَارِهِ العَظَمُوتِيَّة ۞ حَتَّى لَقَدْ نَظَرَتْ إِلَى قُصُورِ الرُّومِ وَكَنْعَان ۞

ثم شرَعَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وجعل الصدق عماده، في ذكر ما احتوته الولادة، وهو الباب الخامس جعلني اللَّه في محبته كلما مسّ.

(وَلَمَّا جَاءَ شَهْرُ وِلَادَتِهِ) صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو ربيع الأول على المُعتمد، (الَّتِي هِيَ أَعْظَمُ) أَيْ: أجَلُّ وأوفر (عَطِيَّةٍ مِنَ المَلِكِ) أَيْ: مالك النعم هو الحق سبحانه وتعالى (الْمُتَفَضِّلِ) على عباده (بِتِلْكَ الهَدِيَّة) لأنه رحمة أُهديت للعالمين، وبه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أُخرجوا من الظلمات إلى النور، (أَخَذَتْ آمِنَةُ فِي أَتْعَابِ الوِلَادَةِ) وفي الحديث عن شداد بن أوس قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنِّي كُنْتُ بِكْرَ أُمِّي وَأَنَّهَا حَمَلَتْ بِي كَأَثْقَلِ مَنْ كَانَتْ تَحْمِلُ النِّسَاءُ وَجَعَلَتْ تَشْتَكِي إِلَى صَوَاحِبَاتِهَا ثِقَلَ مَا تَجِدُ»[٤٠].

وانظر قوله: (وَهِيَ كَلَا شَيْءَ بِالنِسْبَةِ لِمُعَالَجَةِ النِّسْوَان) مع شاهد من حديث ابن إسحاق: «أَنَّ آمِنَةَ كَانَتْ تُحدِّثُ أُتِيَتْ حِينَ حَمَلَتْ بِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقِيلَ لَهَا: حَمَلْتِ بِسَيِّدِ هَذِهِ الْأُمَّةِ، وَقَالَتْ: مَا شَعَرْتُ بِأَنِّي حَمَلْتُ بِهِ وَلَا وَجَدْتُ لَهُ ثِقَلًا وَلَا وَحْمًا كَمَا تَجِدُ النِّسَاءُ». وجمَعَ بينهما الحافظ أبو نُعَيْم: بأنها وجدت الثقل في ابتداء حملها به، والخفة عند استمرار الحمل فيكون على الحالَيْن خارجًا عن العادة.

(وَلَمْ تَزَلْ) آمنة (وَهِيَ فِي ذَلِكَ تَتَرَاكَمُ) تزداد عليها (الأَعْرَاف) بوارق الأنوار الجمالية (العِطْرِيَّة) لأنها تبسط القلب بالفرح كما أن العطر يبسط

---

(٤٠) ذكره الطبري في "تفسيره" وأخرجه الآجري وابن عساكر.

الخاطر ويجلي الجسد، (وَتَزْدَادُ بذلك (بُشْرَى) فرحًا وسرورًا (بِقُرْبِ ظُهُورِ) ولادة (مُنَوِّرِ سَائِرِ البُلْدَان) من المغرب إلى المشرق.

(وَحَضَرَهَا) أَيْ: جاءتها زائرات له صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (فِي لَيْلَةِ الوِلَادَةِ بَعْضٌ مِنَ الحُورِ العِينِيَّة) من الحَوَر لاتِّساع عيونهن أو شدة بياض عيونهن مع شدة السواد، وهُنَّ نساء الجنة، وقدومهن في ساعة ولادته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تبرُّكًا به وفرحًا وتعظيمًا لجنابه.

(وَكَذَلِكَ) حضرتها (مِنَ النِّسَاءِ) من بنات آدم: (آسِيَة) امرأة فرعون آمنت بموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وعذَّبها فرعون. وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إن فرعون أوتدها بأربعة أوتاد، -أي بثديْها ورجليْها-، واستقبل بها الشمس وأضجعها على ظهرها ووضع الصخرة على صدرها، والملائكة تظللّها، ودعت اللَّه سبحانه وتعالى فنجَّاها بأحسن نجاة فرفعها إلى الجنة فهي تأكل وتشرب»[٤١].

(وَ) حضرتها (مَرْيَمُ ابْنَةُ عِمْرَان) البكر البتول التي أحصنت فرجها وهي أم رسول اللَّه [سيدنا عيسى] صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهي من ذرية نبي اللَّه سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ، بينها وبينه أربعة وعشرون أبًا.

(فَاشْتَدَّ بِهَا الطَّلْقُ) وجع الولادة (لِتَمَامِ المُدَّةِ فِي لَيْلَةِ الِاثْنَيْنِ) على المُعتمد. قال ابن إسحاق: أخطأ مَنْ قال وُلِد يوم الجمعة. قال ابن حجر: إنما وُلِد يوم الاثنين ولم يكن جمعة في ربيع الأول، ولم يكن في الأشهر

---

(٤١) ذكره القرطبي والنيسابوري في "تفسيرهما.

الحرم أو رمضان لئلا يتوهم أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تشرَّف بذلك الزمن الفاضل على المفضول، لتظهر مرتبته به على الفاضل، ونظير ذلك دفنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في المدينة دون مكة، لأنه لو دُفِن فيها لقصد تبعًا لها، وأُفرِد بموضع مفضول عند أكثر العلماء ليفوق به الفاضل عن الأكثر، وليُقْصَد قبره ومسجده صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بطريق الاستقلال أَيْ: منفردًا، إظهارًا لمزيد كرامته على ربه.

ولأجل ذلك شُرِّفَتْ ليلة الاثنين لكونها هي (المَطْلِيَّة) المُحمديَّة بظهور الضياءات المحمدية ([بِأَنْوَارٍ وَأَسْرَارٍ وَحِكَمٍ])، الذي ببعثته أمدَّ اللَّه خلقه (وَرَحْمَة) للعالمين (وَرَأْفَة) للمؤمنين، وكل نعمة من اللَّه بواسطته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، (وَغُفران) لمن أناب إلى السبيل المستقيم. قيل: إن ليلة مولده صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أفضل من ليلة القدر. واستدل قائلها بوجوه كثيرة يعلمها الواقف عليها إذا حقَّقَ ودَقَّقَ.

(وَكَانَتْ إِذْ ذَاكَ) آمنة في حين الولادة (حَاضِرَة عِنْدَهَا أُمُّ عُثْمَانَ ابْنِ أَبِي العَاصِ) وهي فاطمة بنت عبد اللَّه الثقفية (ذَات الحُظُوظِ) أَيْ: المكارم (الْهَنِيَّة) أَيْ: الجميلة، (وَالشَّفَاءُ) بالفاء المُشدَّدة هي (أُمُّ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ) وهو أحد العشرة، (سَيِّد أَهْلِ الشُّكْرَان) وكان بازل ماله في سبيل اللَّه، أسلم قديمًا وهاجر الهجرتين، وأُمُّه الشفا بنت عمرو بن عوف وكانت صحابية، وسيأتي بيانه بعد إن شاء اللَّه.

(فَاشْتَدَّ بِهَا الطَّلْقُ) حين ولادتها (فَوضَعَتْهُ) صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (مَخْتُونًا) أَيْ: مقطوع الختان والسُّرَّة (حِكْمَة رَبَّانِيَّة) اُختصَّ بها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. أخرج البيهقي عن العباس بن عبد المطلب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «وُلِدَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَخْتُونًا مَسْرُورَ السُّرَّةِ فَأُعْجِبَ بِهِ جَدُّهُ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ، وَقَالَ: لَيَكُونَنَّ لِابْنِي هَذَا شَأْنٌ. فَكَانَ لَهُ شَأْنٌ». وأخرج ابن عساكر عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مِنْ كَرَامَتِي عَلَى اللَّهِ أَنِّي وُلِدْتُ مَخْتُونًا، وَلَمْ يَرَ سَوْءَتِي أَحَدٌ». وعن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «وُلِدَ النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَسْرُورًا مَخْتُونًا».

(شَاخِصًا بِبَصَرِهِ إِلَى السَّمَاءِ)، وفي بعض الروايات: «وَقَعَ جَاثِيًا عَلَى رُكْبَتَيْهِ مُعْتَمِدًا عَلَى الْأَرْضِ ثُمَّ بِيَدَيْهِ، ثُمَّ أَخَذَ قَبْضَةً مِنْ تُرَابٍ وَرَفَعَ رَأْسَهُ إِلَى السَّمَاءِ»[٤٢] إشارةً إلى شأنه وقدره يرتفع ويعلو في الدنيا والآخرة. (فَنَسْأَلُكَ اللَّهُمَّ) بحرمة حبيبك الأعظم ورسولك الأكرم، أن ترزقنا الصدق لمحبته واتِّبَاع سُنَّته وتعظيم حرمته وحسن الأدب معه وخواص أحبابه، ونتوسَّل به إليك أن تمُدَّنا بكامل الإيمان والعصمة عن العصيان، وأسبل علينا (سَتْرَ)كَ في (الدَّارَان) دنيا وأخرى يا أرحم الراحمين.

(وَقَدْ حَكَتْ) أخبرت (أُمُّهُ) صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (عِنْدَ ذَلِكَ أُمُورًا) وأنها عند ولادتها (نُورَانِيَّة وَخُرُوجَ نُورٍ مَعَهُ) وروى ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَنَّ

(٤٢) أخرجه ابن سعد في "طبقاته" وذكره ابن كثير في "البداية والنهاية".

آمِنَةَ قَالَتْ: لَمَّا انْفَصَلَ مِنِّي خَرَجَ لَهُ نُورٌ أَضَاءَ مِنْهُ الْمَشْرِق»[٤٣]، لأنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو عين النور. ولما برز (سَطَعَ) انتشر (فِي الأُفُقَان) أَيْ: أفق الأرض.

وَأَخْرَجَ النَّسَائِيُّ رُوِيَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: «كَانَتْ آمِنَةُ تُحَدِّثُ بِمَا رَأَتْ قَالَتْ: لَمَّا أَخَذَنِي مَا يَأْخُذُ النِّسَاءَ، وَلَمْ يَعْلَمْ بِي أَحَدٌ لَا ذَكَرٌ وَلَا أُنْثَى، وَأَنَا وَحِيدَةٌ فِي الْمَنْزِلِ، وَعَبْدُ الْمُطَّلِبِ فِي طَوَافِهِ، فَسَمِعْتُ وَجْبَةً - أَيْ حَرَكَة عَظِيمَة- وَأَمْرًا عَظِيمًا أَهَالَنِي، ثُمَّ رَأَيْتُ كَأَنَّ جَنَاحَ طَيْرٍ أَبْيَضَ، قَدْ مُسِحَ عَلَى فُؤَادِي، فَذَهَبَ عَنِّي الرُّعْب، وَكُلُّ وَجَعٍ أَجِدُهُ، ثُمَّ الْتَفَتُّ وَإِذَا بِشَرْبَةٍ بَيْضَاءَ فَتَنَاوَلْتُهَا، فَأَضَاءَ مِنِّي نُورٌ عَالٍ، ثُمَّ رَأَيْتُ نِسْوَةً كَالنَّخْلِ طِوَالاً، كَأَنَّهُنَّ مِنْ بَنَاتِ عَبْدِ مَنَاف يُحْدِقْنَ بِي، فَبَيْنَمَا أَنَا أَتَعَجَبُ وَأَنَا أَقُولُ: وَا غَوْثَاهْ، مِنْ أَيْنَ عَلِمْنَ بِي؟، قُلْنَ لِي: نَحْنُ آسِيَةُ امْرَأَة فِرْعَوْن وَمَرْيَم ابْنَة عمرَان وَهَؤُلَاء الْحُور الْعِين، وَأَنَا أَسْمَعُ الْوَجْبَةَ فِي كُلِّ سَاعَةٍ أَهْوَلَ وَأَعْظَمَ، فَبَيْنَمَا أَنَا كَذَلِكَ إِذَا بِدِيبَاجٍ أَبْيَضَ قَدْ مُدَّ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، وَإِذَا بِقَائِلٍ: خُذُوهُ عَنْ أَعْيُنِ النَّاسِ. قَالَتْ: رَأَيْتُ رِجَالًا قَدْ وَقَفُوا فِي الْهَوَاءِ، بِأَيْدِيهِمْ أَبَارِيقُ مِنْ فِضَّةٍ، ثُمَّ نَظَرْتُ فَإِذَا أَنَا بِقِطْعَةٍ مِنَ الطَّيْرِ قَدْ أَقْبَلَتْ، حَتَّى غَطَّتْ حُجْرَتِي، وَمَنَاقِيرُهَا مِنَ الزُّمُرُّدِ وَأَجْنِحَتُهَا مِنَ الْيَاقُوتِ، فَكَشَفَ اللَّهُ عَنْ بَصَرِي، فَرَأَيْتُ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا، فَرَأَيْتُ ثَلَاثَ أَعْلَامٍ: عَلَمٌ بِالْمَشْرِقِ، وَعَلَمٌ بِالْمَغْرِبِ، وَعَلَمٌ عَلَى ظَهْرِ الْكَعْبَةِ،

---

(٤٣) أخرجه ابن سعد في "طبقاته"

وَأَخَذَنِي الْمَخَاضُ فَوَضَعْتُ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَنَظَرْتُ إِلَيْهِ فَإِذَا هُوَ سَاجِدٌ، فَرَفَعَ أَصَابِعَهُ إِلَى السَّمَاءِ كَالْمُتَضَرِّعِ الْمُبْتَهِلِ، ثُمَّ رَأَيْتُ سَحَابَةً بَيْضَاءَ قَدْ أَقْبَلَتْ مِنَ السَّمَاءِ، حَتَّى غَشِيَتْهُ فَغُيِّبَتْ عَنِّي، فَسَمِعْتُ مُنَادِيًا يُنَادِي: طُوفُوا بِهِ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا، وَأَدْخِلُوهُ الْبِحَارَ لِيَعْرِفُوهُ بِاسْمِهِ وَنَعْتِهِ وَصُورَتِهِ». الحديث قاله ابن زكرى.

(وَقَالَتْ أُمُّ عُثْمَانَ) المُتقدِّم ذكرها (تَدَلَّتِ) وأتت (النُّجُومُ) تعظيمًا للنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وكرامةً له، (وَلَمْ تَنْظُرْ عِنْدَ وِلَادَتِهِ) صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (إِلَّا أَنْوَارًا عُمُومِيَّةً) أَيْ: عمَّت على جميع الأُفق، كما رواه البيهقي وابن عساكر عن عثمان بن العاص عن أمه فاطمة أنها قالت: «لَمَّا حَضَرَتْ وِلَادَةَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَأَيْتُ الْبَيْتَ حِينَ قَدْ وُضِعَ قَدْ امْتَلَأَ نُورًا، وَرَأَيْت النُّجُومَ تَدْنُو حَتّى ظَنَنْتُ أَنَّهَا سَتَقَعُ عَلَيَّ». قال ابن حجر: هذا لم يكن لغيره صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. (وَذَلِكَ أَنَّهَا) أَيْ: الأنوار انتشرت و(عَمَّتْ فِي سَائِرِ الكِيَانِ) أَيْ: الأكوان.

وَقَالَتْ الشَّفَّا بنت عوف (أُمّ عَبْدِ الرَّحْمَنِ) المُتقدِّم ذكرها: (لَمَّا سَقَطَ وقع (عَلَى يَدَيَّ وَاسْتَهَلَّ) وهو رفع الصوت عند الولادة. وقيل: أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عطس ولذلك شَمَّتَتْهُ الملائكة بعطاسه (عَلَيْهِ) أفضل وأكمل (الصَّلَاةُ) (وَ) أَتَمُّ (السَّلَامُ) من اللَّه يستمران إلى الأبد، (مَقْرُونَتَانِ) أَيْ: الصَّلَاة والسَّلَام (بِالزَّكِيَّةِ) أَيْ: النمو وهو الزيادة، أَيْ: متزايدان على مر الزمان، (سَمِعْتُ قَائِلاً) هاتفًا (يَقُولُ رَحِمَكَ اللَّهُ) يا مُحمَّد رحم بك قائلها،

(فَيَا هَنِيئًا لَهَا) أَيْ: فيا فوزها (بِتِلْكَ المَجْلِسَان) أَيْ: مجلسها قبل الولادة، وإذ ذاك أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غائب وفي مجلسها ملائكة الرحمة والصِّدِّيقات من النساء مريم وآسية، ويعد مجلسه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو الرحمة الكبرى. والله أعلم.

(وَ) كذلك رأت نورًا (أَضَاءَ لَهَا مَا بَيْنَ المَشْرِقِ) مطلع الشمس (وَالمَغْرِب) مغيبها (مِنْ أَنْوَارِهِ) صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (العَظَمُوتِيَّة) العظيمة (حَتَّى) أنها (لَقَدْ نَظَرَتْ إِلَى قُصُورِ الرُّومِ) أَيْ: بلاد الروم وهي بلدة عن شمال العراق، (وَكَنْعَان) وهو بالشام.

وذلك بما رواه أبو نُعَيْم عن عبد الرحمن بن عوف عن أُمِّهِ أنها قالت: «لَمَّا وَلَدَتْ آمِنَةُ رَسُول اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَعَ عَلَى يَدَيَّ فَاسْتَهَلَّ، فَسَمِعْتُ قَائِلًا يَقُولُ: رَحِمَكَ اللَّهُ وَرَحِمَ بِكَ، وَأَضَاءَ لِي مَا بَيْنَ المَشْرِقِ وَالمَغْرِبِ حَتَّى نَظَرْتُ إِلَى بَعْضِ قُصُورِ الرُّومِ، ثُمَّ أَلْبَسْتُهُ وَأَضْجَعْتُهُ، فَلَمْ أَنْشَبْ أَنْ غَشِيَتْنِي ظُلْمَةٌ وَرُعْبٌ وَاقْشَعَرَّ جَسَدِي، ثُمَّ غُيِّبَ عَنِّي فَسَمِعْتُ قَائِلًا [يَقُولُ: أَيْنَ ذَهَبْتَ بِهِ؟، قَالَ]: ذَهَبْتُ بِهِ إِلَى الْمَشْرِقِ، قَالَتْ: فَلَمْ يَزَلِ الْحَدِيثُ عَلَى بَالِي حَتَّى ابْتَعَثَهُ اللَّه، فَكُنْتُ فِي أَوَّلِ النَّاسِ إِسْلَامًا».

(اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ عَلَى الذَّاتِ المُحَمَّدِيَّة وَاغْفِر لَنَا مَا يَكُونُ وَمَا قَدْ كَانْ)

وَأَمَّا الَّذِي جَرَى لَيْلَةَ مَوْلِدِه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ العَجَائِبِ العَجِيبِيَّة ۞ فَأُمُورٌ دَالَّةٌ عَلَى عَظِيمِ مَكَانَتِهِ مِنَ الحَقِّ وَالمَكَان ۞ كَالِارْتِجَاجِ الوَاقِعِ فِي إِيوَانِ كِسْرَى ذِي البِنَاءَاتِ القَوِيَّة ۞ المَعْرُوفِ بِأَنُوشَرْوَان ۞ فَذلِكَ إِذَا تَأَمَّلْتَهُ وَكُنْتَ ذَا نَظَرٍ وَبَصِيرَةٍ بَصِيرِيَّة ۞ تَرَى فِيهِ أَعْظَمَ البَشَائِرِ بِانْهِدَامِ دَعْوَةِ البُطَلَان ۞ وَغَيْضُ البُحَيْرَةِ المَعْرُوفَةِ بِنَاحِيَةِ الفُرْسِ بِطَبَرِيَّة ۞ فِيهِ مِنَ الآيَاتِ السَّاطِعَةِ بِالحَقِّ وَالبُرْهَان ۞ وَأَعْجَبُ مِنْ ذلِكَ كُلِّه إِذَا دَقَّقْتَ خُمُودُ النَّارِ الفَارِسِيَّة ۞ فَيَا عَجَبَاً مِمَّنْ يَسْمَعُ مِثْلَ هَذَا وَيُكَذِّبُ فَلَيْسَ أَقْوَى مِنْهُ خُسْرَان ۞ وَكَانَ لَهَا عَلَى الصَّحِيحِ أَلْفُ عَامٍ لَمْ تَخْمَدْ لِعِبَادَتِهِمْ أَوْقَدَهَا الجَاهِلِيَّة ۞ وَقَدْ خَمِدَتْ لِظُهُورِه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تِلْكَ النِّيرَان ۞ وَأَصْبَحَتِ الأَصْنَامُ مُنَكَّسَةً عَلَى رُءُوسِهَا لِبُدُوِّ المِلَّةِ الحَنِيفِيَّة ۞ وَبُطْلَانِ عِبَادَتِهَا وَعَمَّ ذلِكَ فِي جَمِيعِ المَشْرِقَان ۞ ثُمَّ أَخَذَتْهُ المَلَائِكَةُ فَطَافَتْ بِهِ جَمِيعَ الأَرْضِيَّة ۞ وَعَمَّتْ بَرَكَتُهُ العُظْمَى عَلَى أَصْنَافِ الوِدْيَان ۞ وَقِيلَ دَارَتْ بِهِ كَذَلِكَ فِي العَوَالِمِ العُلْوِيَّة ۞ لِتَنَالَ مَا نَالَتْهُ الأَرَضُونَ مِنَ الفُخْرَان ۞ وَزُيِّنَتِ السَّمَاءُ لَيْلَةَ مَوْلِدِهِ وَفَرِحَتْ الخَلَائِقُ المَلَكِيَّة ۞ فَكَيْفَ لَا وَمِنْ نُورِهِ خَلَقَهَا الرَّحْمَن ۞ وَعَمَّتِ الأَرْضَ الزِّينَةُ مِنْ غَيْرِ شَكٍّ يَا مَعْشَرَ الأُمَّةِ التَّخْصِيصِيَّة ۞ وَيَحِقُّ لَهَا إِنْ كُنْتَ ذَا فَهْمٍ أَنْ تُزَان ۞ وَهُوَ لِمَا عَمَّ فِيهَا مِنْ خَيْرَاتٍ تَشَرَّفَتْ بِهَا عَلَى جَمِيعِ العَوَالِمِ الأُخْرَوِيَّة ۞ فَيَا لَهَا مِنْ مَفَاخِرَ وَلَا سِيَّمَا لِلمَوْضِعَان ۞ وَذَلِكَ حَيْثُ وُلِدَ وَنَشَأَ وَبَدَأَهُ الوَحْيُ فِي الأَرْضِ المَكِّيَّة ۞ وَحَيْثُ دُفِنَ فَيَا لَيْتَنِي كُنْتُ تِلْكَ الأَرْضُ الَّتِي زَادَتِ الفَخْرَان ۞

ثم شَرَع المُصنِّف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وعَزَّهُ بقوة التصريفات في ذكر ما وقع عند ليلة مولده صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الآيات، وهو الباب السادس أَمَدَّنَا الله بمدده الأقدس.

(وَأَمَّا الَّذِي جَرَى) أَيْ: نزل في (لَيْلَة مَوْلِدِه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) التي هي أفضل من ليلة القدر (مِنَ العَجَائِب العَجِيبِيَّة) من خُرُور الأصنام واستشراق النور الذي ملأ الأفق، وارتجاس [الإيوان].

حكى السُّهَيْلِيّ في "مختصر ابن إسحاق": أَنَّ إِبْلِيسَ رَنَّ -أَيْ: صَاحَ- أَرْبَعَ رَنّاتٍ: حِينَ لُعِنَ، وَحِينَ أُهْبِطَ، وَحِينَ وُلِدَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَحِينَ نَزَلَتْ الْفَاتِحَةُ.

(فَـ) وقد وقعت كثيرٌ من الأمارات (أُمُورٌ دَالَّةٌ عَلَى عَظِيمِ) أَيْ: ارتفاع (مَكَانَتِهِ) قربه (مِنَ الحَقِّ) سبحانه وتعالى ذكره وعَزَّ دينه وأعطاه الوسيلة، (وَ) أُعطِي (المَكَان) في فراديس الجنان.

(كَالِارْتِجَاجِ) التحرُّك الشديد (الوَاقِع) النازل (فِي إِيَوَانِ) بكسر الهمزة، ويقال إِوَان ككتاب. قال الجوهري: هو الصُّفَّةُ العَظيمَةُ كالأزَجِ وهو مؤزج أَيْ: مبني طولاً غير مسدود الوجه وهو فارسي. قال: بيت كبير مستطيل ذو شرفات (كِسْرَى) بفتح الكاف وكسرها معناه: واسع الملك وهو لقبٌ لكل مَن مَلَك الفُرْس، كقيصر لملك الروم، وَتُبَّعٍ لملك اليمن، والنعمان لملك العرب من قبل العجم، والنجاشي لملك الحبشة،

وفرعون لملك القبط، والعزيز لملك مصر، وجالوت لملك البربر، وخاقان لملك التُّرْك.

(ذِي) أَيْ: صاحب (البِنَاءَات القَوِيَّة) أَيْ: في غاية العظم بناءً وإتقانًا وإحكامًا، وهو من عجائب الدنيا سعةً وتزخرُفًا. وأما كسرى الذي في ذلك الزمن (المَعْرُوف) اسمه (بِأَنُوشَرْوَان) وقيل: أبو شروان له بيت عظيم الإتقان يُظنّ ألا تهدمه إلا نفخة الصُّور، فتحَرَّك في ليلة مولده صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وسقطت منه أربعة عشر شُرَافَة، وهذا دليلٌ علم بالقطع إن ذلك إلا محض آية منه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للوجود على نبوءته، وأنه لا مُلك ولا عِزّ يبقى لأحد مع ملكه وعزته، وسقوط الأربعة عشر شُرَافة إشارة إلى أنه لم يبق من ملكهم إلا الأربعة عشر، فملك عشرة في أربع سنين وبقي إلى زمن عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقد فتح في زمن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أكثر إقليم فارس وكسرى، وأهانه غاية الهوان فتقمقم إلى مملكته، ثم قُتِل في زمن عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وزَالَ ملكه بالكلية.

وصحَّ عنه أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «إِذَا هَلَكَ كِسْرَى فَلَا كِسْرَى بَعْدَهُ»[٤٤]، وأن أمواله وكنوزه تُنفَق في سبيل اللَّه فانقطع ملكه وتمزَّق، لأنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دعى له بذلك لما جاءه كتابه فمَزَّقه، وقد بشَّر صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أصحابه في حفر الخندق بملك بلاده وقال

(٤٤) أخرجه البخاري ومسلم وأحمد وأبو داود الطيالسي والترمذي وابن حبان والطبراني.

لسُرَاقة: «كَيْفَ بِكَ إِذَا أُلْبِسْتَ سِوَارَيْ كِسْرَى»[٤٥]، فلما أتى بهما عمر ألبسهما إياه. فقال: «[قُلِ]: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي سَلَبَهُمَا مِنْ كِسْرَى وَأَلْبَسَهُمَا سُرَاقَةَ»[٤٦]. قال العلماء: عُذْرٌ يبيح له لأنه إظهار معجزته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

(فَذلِكَ) حديث الارتجاج وسقوط الشرفات (إِذَا تَأَمَّلْتَهُ) بحسن الفكر (وَكُنْتَ ذَا) أَيْ: صاحب (نَظَر وَبَصِيرَة بَصِيرِيَّة) أَيْ: عقل سليم وفهم تام وببصيرة تبصر بها الحق (تَرَى) أَيْ: تُبْصِر (فِيهِ) أَيْ: الارتجاج من (أَعْظَم) البَشَائِرِ) الدالَّة على رسالته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وظهور الإسلام وخرور الأصنام، وسرى نوره صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (بِانْهِدَامِ دَعْوَةِ البُطَلَان) أَيْ: كل دعوة باطلة بدا خرابها في تلك الليلة.

(وَغَيْضُ) أَيْ: احتساها (البُحَيْرَة) والأنهار (المَعْرُوفَة) ببلد معروف (بِنَاحِيَةِ) أَيْ: على ناحية (الفُرْسِ) بالضم ويقال فارس، ومنه حديث: فارس والروم أمة عظيمة[٤٧]. لأن مسكنهم في شمال العراق من الفراسة أَيْ: الشجاعة، (بِطَبَرِيَّة) وتُسَمَّى عين سَاوَة.

أخرج ابن أبي الدنيا والبيهقي: أن بحيرة الطبرية غاض ماؤها ليلة مولده صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وهي بلدة بالشام معروفة بينها وبين الأرض

---

(٤٥) أخرجه ابن عبد البر في "الاستيعاب" والحافظ في "الإصابة".

(٤٦) أخرجه البيهقي.

(٤٧) أُمتُدحت فارس في حديث أخرجه الترمذي وغيره: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ كَانَ الإِيمَانُ مَنُوطًا بِالثُّرَيَّا لَتَنَاوَلَهُ رِجَالٌ مِنْ فَارِسَ». وغلبة الروم لفارس: ﴿غُلِبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ﴾

المقدسة مرحلتان، وهي كثيرة الماء واسعة طولها ست أميال وكذا عرضها، ما تُخيِّل غيضه فغاضت ليلة مولده صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتى لا يبقى منها قوة ماء.

وإذا نظرت إلى هذا الأمر العظيم ترى (فِيهِ مِنَ الآيَاتِ) العلامات (السَّاطِعَة) الظاهرة الدالة على نبوءته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعظمته عند ربه وصدقه (بِالحَقِّ) الثابت (وَالبُرْهَان) الحُجَّة الواضحة.

(وَأَعْجَبُ مِنْ ذلِكَ كُلِّه) وأعجب وأعظم ما نزل من خوارق العادة (إِذَا دَقَّقْتَ) فهمك في (خُمُود) إطفاء (النَّارِ) التي كانت تعبدها القوم (الفَارِسِيَّة) وهم مجوس لهم نار يعبدونها ويعظِّمونها، وقد خمدت ليلة بروزه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، (فَيَا عَجَبًا مِمَّنْ يَسْمَعُ) ويرى هذه البراهين القطعية مثل خمود نار فارس بلا سبب، ويجحد (مِثْلَ هَذَا وَيُكَذِّبُ) ما جاء به صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (فَلَيْسَ) أحد (أَقْوَى) أَيْ: أشد (مِنْهُ) من هذه الحاجة (خُسْرَان) وعليه أشد العقاب في دركات الجحيم.

(وَكَانَ لَهَا) أَيْ: نار فارس (عَلَى الصَّحِيحِ) من الأخبار (أَلْف عَامٍ) مستمر وَقْدهَا، و(لَمْ تَخْمَدْ) ساعة (لِعِبَادَتِهِمْ) واشتغالهم بها، (أَوْقَدَهَا) في زمن (الجَاهِلِيَّة) في قرونهم السابقة.

(وَقَدْ خَمِدَتْ لِظُهُورِه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تِلْكَ النِّيرَان)، [وَذَكَتِ الْأَرْضُ وَأَدَّتْ] رَبِيعَهَا وَأَوْمَأَ إِلَى الْأَصْنَامِ الَّتِي كَانَتْ عَلَى الْكَعْبَةِ فَسَقَطَتْ كُلُّهَا. قَالَ النَّجَاشِيُّ: وَيْحَكُمَا أُخْبِرُكُمَا عَمَّا أَصَابَنِي إِنِّي لَنَائِمٌ فِي اللَّيْلَةِ الَّتِي

ذَكَرْتُمَا فِي قُبَّتِي وَقْتَ خَلْوَتِي، إِذْ خَرَجَ عَلَيَّ مِنَ الْأَرْضِ عُنُقٌ وَرَأْسٌ وَهُوَ يَقُولُ: حَلَّ الْوَيْلُ بِأَصْحَابِ الْفِيلْ، رَمَتْهُمْ طَيْرٌ أَبَابِيلْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلْ، هَلَكَ الْأَشْرَمْ الْمُعْتَدِي الْمُجْرِمْ، وَوُلِدَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْأُمِّيُّ الْحَرَمِيُّ الْمَكِّيُّ، مَنْ أَجَابَهُ سَعَدْ وَمَنْ أَبَاهُ عَنَدْ. ثُمَّ دَخَلَ الْأَرْضَ فَغَابَ فَذَهَبْتُ أَصِيحُ فَلَمْ أُطِقِ الْكَلَامَ، وَرُمْتُ الْقِيَامَ فَلَمْ أُطِقِ الْقِيَامَ، فَأَتَانِي أَهْلِي فَقُلْتُ: احْجُبُوا عَنِّي الْحَبَشَةَ فَحَجَبُوهُمْ عَنِّي حَتَّى انْطَلَقَ لِسَانِي وَرِجْلِي[٤٨].

([وَأَصْبَحَتِ الأَصْنَامُ مُنَكَّسَةً عَلَى رُءُوسِهَا لِبُدُوِّ المِلَّةِ الحَنِيفِيَّة وَبُطْلَانِ عِبَادَتِهَا وَعَمَّ ذلِكَ فِي جَمِيعِ المَشْرِقَان]). ويرحم اللَّه يومًا عظيمًا في الوجود مباركًا، قمع اللَّه فيه وانتفى رقاها وتساقط لوجودها الأصنام من بركاتها في مكَّة وسواها.

(ثُمَّ) بعد بروزه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (أَخَذَتْهُ المَلَائِكَة) المُقرَّبُون (فَطَافَتْ) دارت (بِهِ) صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (جَمِيعِ الأَرْضِيَّة) أَيْ: فلا يبقى موضع من الأرض إلا ودخلوا فيه، (وَعَمَّتْ) أَيْ: سَرَتْ (بَرَكَتُهُ) صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (العُظْمَى) أَيْ: الكبرى وهي الإيمان لأنه أجَلّ النعم، (عَلَى أَصْنَافِ الوِدْيَان) من العرب والعجم والأبيض والأسود بل جميع الثقلين، (وَقِيلَ دَارَتْ بِهِ كَذَلِكَ) صعدت به الملائكة لِتُطَوِّفَهُ (فِي العَوَالِمِ) الملكوتية و(العُلْوِيَّة) ما فوق الأرض ما لا يعلمه إلا اللَّه، (لِتَنَالَ) من البركة (مَا نَالَتْهُ

(٤٨) ذكره ابن كثير في "البداية والنهاية" والسيوطي في "الخصائص".

الأَرَضُونَ مِنَ) الفخر و(الفُخْرَان) لكونه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وُلِد فيها ودُفِن فيها.

(وَزُيِّنَتِ السَّمَاءُ) بالضياءات كما تتزيَّن الأمصار والمدن لقدوم عظيم من الملوك، وكذلك تزيَّن الملكوت في (لَيْلَة مَوْلِدِهِ) صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عروس المملكة وإنسان عين الوجود، (وَفَرِحَتْ) جميع (الخَلَائِق المَلَكِيَّة) الملائكة بأسرها وكثرتها وهم: أجسامٌ لطيفة حسنة وأكلهم وشرابهم التسبيح والتقديس والتهليل، لا يعصون اللَّه ما أمرهم، فاستبشروا بمولده صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، (فَكَيْفَ لَا) تفرح (وَمِنْ نُورِهِ) صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (خَلَقَهَا الرَّحْمَن) كما تقدَّم.

(وَعَّمتِ الأَرْضَ) أَيْ: عمَّها نوره صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (الزِّينَة) إليها (مِنْ غَيْرِ شَكٍّ) في ذلك كما تواتر من الأخبار الصحيحة لأنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ زينة الوجود وبهجته وعمدته، (يَا مَعْشَر الأُمَّةِ التَّخْصِيصِيَّة) احْمَد اللَّه واشْكُر له لما تفضَّل عليك بإرسال [خير] خلقه وكنت به خير أُمَّة، وذلك فضل اللَّه يعطيه من يشاء، (وَيَحِقُّ) أَيْ: يوجب (لَهَا) أَيْ: الأرض، (إِنْ كُنْتَ) يا مُخاطَب (ذَا فَهْمٍ) وعلمٍ ويقينٍ بفضل النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأنه أكرم الخلق على الإطلاق، وتقول: يحقّ للأرض (أَنْ تُزَان) فرحًا بحبيب اللَّه.

(وَهُوَ لِمَا عَمَّ) وُلد (فِيهَا) ومَنْ فيها نوره صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وحلَّ جسده الشريف في جوفها، ويا لها (مِنْ خَيْرَاتٍ) وفضائل (تَشَرَّفَتْ) تفضلَّت

(بِهَا عَلَى جَمِيعِ العَوَالِمِ الأُخْرَوِيَّة) ما سواها من السماوات والأرض، (فَيَا لَهَا مِنْ مَفَاخِرَ) ومزايا (وَلَا سِيَّمَا لِلمَوْضِعَان) الذي اختص به من الفضل على غيرها، (وَذَلِكَ حَيْثُ وُلِدَ) وتربَّى بمكة (وَنَشَأَ) وكبر بها (وَبَدَأَهُ) أَيْ: نزل له (الوَحْيُ فِي الأَرْضِ المَكِّيَّة) وكذا شرف المكان الذي حيث وُلِد فيه ([وَحَيْثُ دُفِنَ] فَيَا لَيْتَنِي كُنْتُ) أُدْفَن في (تِلْكَ الأَرْضَ الَّتِي) عَزَّها اللَّه وبحلول حبيبه فيها قد (زَادَتِ الفَخْرَان) فخر الدنيا والآخرة.

واختلف العلماء في التفضيل بين المدينة المُنوَّرة ومَكَّة المُشرَّفة، قال الإمام مالك رَحِمَهُ اللَّهُ: المدينة أفضل واستدل بقَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَخْرَجْتَنِي مِنْ أَحَبِّ الْبِلَادِ فَانْقُلْنِي إِلَى أَحَبِّ الْبِلَادِ إِلَيْكَ»[٤٩] فاستجاب اللَّه دعاء رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فنقله إلى أحب البلاد إليه وهي طيبة. وقال الشَّافِعِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: بل مكة أفضل بأنه ﴿أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا﴾[آل عمران: ٩٦].

ولابن زكرى هنا قياسٌ وهو قوله: شَرَفُ كُلّ شَرَفٍ بحسب القرب منه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومن هنا أن مولده صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أفضل من ليلة القدر، لأنها أقرب إليه من ليلة القدر، والقرن الذي كان فيه أفضل القرون إليه، ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم وهكذا. ولهذا كان أفضل الصحابة أبو بكر الصِّدِّيق ثم عمر ثم عثمان ثم عليّ، لأن أبا بكر أشدهم في القرب واللزوم المعنوي.

---

(٤٩) أخرجه الحاكم والبيهقي وابن عساكر.

ثم تقول: فأساس البنيان وترجيح هذا القياس انظر تفضيل العلماء لموضع قبره صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالقُرْب، على الكرسي والجنة وسدرة المنتهى وغير ذلك من الأماكن الشريفة، فإن شرف هذه الأماكن بالغ الغاية ولصل النهاية، لكن لما كان المواضع الشريفة أقرب بالمباشرة للجسد المُقدَّس فُضِّل عليها، وقد كان العرش مضطربًا ثم سكن بكتابة اسمه كما في الحديث(٥٠)، فكيف بالمكان الذي ضَمَّ أعضاؤه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأَيُّ قياس بينهما في القُرْب؟!.

وكذلك الأرض على السماء لحَقِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ منها ودفنه فيها، مع أن السماوات محل الطاعات التي لا تشوبها معصية، فلما كانت الأرض أقرب إليه لخلقه من جنسها، لم تقام جهات تفضيل السماء جهة تفضيل الأرض وهي القرب إليه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وانظر قول مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أن المدينة أفضل من مكة، مع إن مكة هى التي لها الفضل في سائر أعصار الأنبياء والمرسلين، والمشهورة بالحج والعمرة والمناسك، ومع هذا لما انتقل صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى المدينة وصارت دار هجرته فُضِّلت على مكة، ولم تقاوم شرف مكة جهة شرف المدينة التي هي أقرب إليه ونالت الاشتمال عليه.

---

(٥٠) أخرجه الحاكم: «... وَلَقَدْ خَلَقْتُ الْعَرْشَ عَلَى الْمَاءِ فَاضْطَرَبَ فَكَتَبْتُ عَلَيْهِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ فَسَكَنَ».

وقول مالك أيضًا لما سُئِل عن فضيلة خديجة وعائشة وفاطمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُن: لا أساوي ببضعة رسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أحدًا. وظهر بهذا أن المدينة أفضل، وكل مَنْ قرب إليه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ له الشرف على غيره اهـ.

(اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ عَلَى الذَّاتِ المُحَمَّدِيَّة وَاغْفِر لَنَا مَا يَكُونُ وَمَا قَدْ كَانْ).

ثُمَّ نَشَأَ مَعَ أُمِّهِ وَتُوُفِيَتْ بَعْدَ مُدَّةٍ مِنَ الزَّمَانِ قَلِيلِيَّة ۞ وَقَدْ تُوُفِّيَ أَبُوهُ قَبْلَهَا كَمَا صَحَّحَهُ الشَّهْمَان ۞ ثُمَّ تَوَجَّهَتْ بِهِ كَمَالُ العِنَايَةِ الأَبَدِيَّة ۞ بَعْدَ أَنْ تَرَكَهُ بَعْضُ النِّسْوَان ۞ وَذَلِكَ إِلَى حَضْرَةِ سَيِّدَتِنَا كَامِلَةِ الحَظِّ حَلِيمَةَ السَّعْدِيَّة ۞ فَيَا لَهَا مِنْ سَعَادَةٍ فَاقَتْ بِهَا عَلى جَمْعٍ مِنَ الإِنْسِ وَالجَان ۞ وَحَصَلَ لَهَا مِنَ البَرَكَةِ مَا خَبَّرَتْ بِهِ فِي الدِّيَارِ الحَرَمِيَّة ۞ كَمِثْلِ دُرُورِ شَاتِهَا الَّتِي لَمْ يَكُنْ فِيهَا شَيْءٌ مِنَ الأَلْبَان ۞ وَخِصْبِ غَنَمِهَا الَّتِي كَانَتْ لَمْ تَحْوِ شَيْئاً مِنَ المَنْفَعِيَّة ۞ فَعَادَتْ بِالإِعْطَاءِ مِمَّا جَادَ بِهِ فِيهَا الحَنَّان ۞ وَفِي سُرْعَةِ شَبَابِهِ مِنَ الغَرَائِبِ مَا حَكَتْهُ الأَفْضَلِيَّة ۞ دِلَالَاتٌ عَلَى عِظَمِ اعْتِنَاءِ البَرِّ بِهِ لِأَنَّهُ يَتِيماً كَان ۞ وَفِي الضُّحَى أَسْرَارٌ مِنَ الرَّحِيمِ الكَرِيمِ مَثْلِيَّة ۞ مِنْ إِيوَاءٍ وَإِهْدَاءٍ وَإِغْنَاءٍ وَقَدْ حَان ۞ وَفِي حُسْنِ نَشْأَتِهِ وَنَظَافَتِهِ مَعَ صِغَرِهِ تَأْدِيبُ أَدَبِيَّة ۞ وَإِصْبَاحُهُ صَقِيلاً دَهِيناً كَحِيلاً يُشِيرُ لِهَذَا الدَّوَرَان ۞ وَبَرَكَتُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الأَكْلِ مِنْ صِغَرِهِ إِذَا حَضَرَ فِيهِ ظَاهِرَةٌ مَشْهُورَةٌ مَرْمُوزِيَّة ۞ وَهُوَ أَنَّهُ إِذَا أَكَلَ مَعَ عَمِّهِ أَبِي طَالِبٍ وَآلِهِ شَبِعُوا بِغَيْرِ تَوَان ۞ وَإِذَا غَابَ خَرَجَتْ تِلْكَ البَرَكَةُ فَلَمْ تَشْبَعِ الجَمْعِيَّة ۞ وَثَمَّ مِنْ عِظَمِ قَدْرِهِ مَا يَكِلُّ عَنْهُ الوَصْفَان ۞ فَتَأَهَّبْ بِتَفْرِيغِ سِرِّكَ لِحُبِّ هَذِهِ النَّشْأَةِ المَحْفُوظِيَّة ۞ وَتَوَجَّهْ لِإِنْزَالِ المَوَدَّةِ فِيهِ سِرًّا وإِعْلَان ۞

ثم شَرَع المُصنِّف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وأيَّده بالتكريم والعِزَّة في حسن نشأته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في أوَّلِ عُمْرِه للترتيب:

(ثُمَّ نَشَأَ) أَيْ: مكث (مَعَ أُمِّهِ) آمنة (وَتُوُفِيَتْ بَعْدَ) ولادته في (مُدَّةٍ مِنَ الزَّمَانِ قَلِيلِيَّة) من عُمُرِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نحو ستة أيام، كما ذكره ابن عبد البر. (وَقَدْ تُوُفِّيَ) أَيْ: مات (أَبُوهُ) عبد الله (قَبْلَهَا) أَيْ: قبل آمنة، وهو صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذ ذاك حَمْل (كَمَا صَحَّحَهُ) الحاكمُ في قوله (الشَّهْمَان) أَيْ: أهل الإتقان.

ذكر أن أُمُّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خرجت به صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى المدينة لزيارة أخواله فماتت وهي راجعة إلى مَكَّة بالأبواء -موضعٌ بين المدينة ومكة وإلى المدينة أقرب- وحملته أم أيمن إلى جده عبد المُطَّلِب، وكفله وأشفق عليه غاية الشفقة.

(ثُمَّ تَوَجَّهَتْ بِهِ) صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (كَمَال العِنَايَةِ) العصمة السابقة له في الأزل (الأَبَدِيَّة) أمد الأزمان. قال ابن إسحاق: فَشَبَّ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَكْلَؤُهُ اللَّهُ وَيَحْفَظُهُ، وَيَحُوطُهُ مِنْ أَقْذَارِ الْجَاهِلِيَّةِ، لِمَا يُرِيدُ مِنْ كَرَامَتِهِ وَرِسَالَتِهِ حَتَّى بَلَغَ، وَكَانَ يَتِيمًا فَآوَاهُ وَعَائِلًا فَأَغْنَاهُ. كما سيأتي.

ثم أخذته حليمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا لترضعه (بَعْدَ أَنْ تَرَكَهُ بَعْضُ النِّسْوَان) أَيْ: صُوَيْحِبَاتِهَا اللاتي خرجن معها للرضاع لكونه يتيمًا فأبيْنَهُ، فلقت كل واحدة منهن رضيعًا إلا حليمة، (وَذَلِكَ) عنايةً ونعمةً جاء بها اللَّه (إِلَى حَضْرَةِ) بيت (سَيِّدَتِنَا) لأنها أم المُصْطَفَى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من

الرضاع، ([كَامِلَةِ الحَظِّ]) (حَلِيمَة) بنت عبد اللَّه بن الحارث (السَّعْدِيَّة) وهو سعد بن مالك وهي قبيلة من بني بكر، (فَيَا لَهَا مِنْ) فوز (سَعَادَةٍ) في الدَّارَيْن (فَاقَتْ) أَيْ: علت (بِهَا عَلى جَمْعٍ مِنَ الإِنْسِ) بني آدم (وَالجَان)، لأنها أرضعت المُصطفى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهي مزية وفضيلة اختصَّتْ بها دون غيرها.

(وَحَصَلَ لَهَا مِنَ البَرَكَةِ) والخيرات والنعم (مَا خَبَّرَتْ بِهِ) حدَّثت هي (فِي الدِّيَارِ) الأماكن (الحَرَمِيَّة) وهي مَكَّة والمدينة، (كَمِثْلِ دُرُورِ) أَيْ: إرسال اللبن في ضرع (شَاتِهَا الَّتِي لَمْ يَكُنْ) قبل رضاعته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (فِيهَا) أَيْ: عندها (شَيْءٌ [مِنَ الأَلْبَان وَخِصْبِ غَنَمِهَا الَّتِي كَانَتْ لَمْ تَحْوِ شَيْئًا] مِنَ المَنْفَعِيَّة) من لبن ولحم لأنها كانت عجافًا، (فَعَادَتْ بِالإِعْطَاءِ) ترجع شُبَّعًا في زمن المَحَل وبها السمن ولغيرها الهزال، وكثرة اللبن بعد اليبس (مِمَّا جَادَ بِهِ فِيهَا) وهيَّأَ له الرحمن، وأرسل فيها كثرة اللبن من الكريم (الحَنَّان).

وأصل ذلك ما رواه الطبراني والبيهقي وأبو نُعَيْم عن حليمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنها قالت: «قدمتُ مكة في نسوة نلتمس الرضاع في سنة مجدبة، ومعي طفلي وشاة ما تَبِضُّ قطرة لبن، ولا لبن في ثديي، فلا ينام الطفل من الجوع، وما علمت امرأة إلا وقد عُرِض عليها رسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فتأباه إذا قيل يتيم، فو اللَّه ما بقي من صواحبي امرأة إلا أخذت رضيعًا غيري، فلما لم أجد غيره قلتُ لزوجي: وَاللَّهِ إِنِّي لَأَكْرَهُ أَنْ

أَرْجِعَ مِنْ بَيْنِ صَوَاحِبِي لَيْسَ مَعِي رَضِيعٌ، ألا انطلقت إلى ذلك اليتيم فَلآخُذَنَّهُ، فَذَهَبْتُ فَإِذَا بِهِ مُدْرَجٌ فِي ثَوْبٍ صُوفٍ أَبْيَضَ يفوح منه المسك، وتحته حريرة خضرًا راقدًا على قفاه، فأشفقتُ أن أوقظه من نومه لحسنه وجماله، فدنوتُ منه رويدًا فوضعتُ يدي على صدره فتبسم، وفتح عينه لينظر إليَّ، فخرج من عينه نور ملأ خلال السماء وأنا أنظرُ، فقبلَّتهُ بين عينيه وأعطيته ثديي، فأقبل عليه بما شاء الله من اللبن، فحوَّلته إلى الأيسر فأبى -فقال أهل العلم: أعلمه الله أن له شريكًا فألهمه العدل- ثم أخذته فما هو إلا أن جئت به فقام زوجي إلى شاة لنا، فإذا بها لبن فحلبها وشربنا حتى روينا وبتنا بخير ليلة.

وفي روايةٍ: لما ودَّعت أمه وذهبت إلى أتَانِها فسجدت [عند] الكعبة ثلاث سجدات ورفعت رأسها إلى السماء ثم مشت فسبقت دوابهن فصرن يتعجبن ويقلن: أهذه أتانك التي كانت ترفعك طورًا وتخفضك طورًا أخرى؟، فتقول: نعم، فقلن: إن لها شأنًا عظيمًا، فسمعتُ الأتان تقول: إن لي لشأنًا عظيمًا يبعثني الله بعد موتي، ويحكن هل تدرين مَنْ على ظهري؟، هو خير الأولين والآخرين. قاله ابن حجر.

وفي روايةٍ عن حليمة: ما نزلنا تحت شجرة يابسة إلا اخضرت لوقتها، وإذا دخل البيت المظلم أضاء وجهه كالمصباح حتى يقلب نوره السراج، فقلتُ: لعلي رأيت ما رأى، فقال: أومَا أخبرتك أنه نسمة مباركة، قالت: لما وصلنا به المنزل كانت لنا شياه عجافًا، فأخذنا يده ومررنا بها

على الشياه فدرَّت لوقتها، وكثر الخير والرزق علينا، حتى حسدنه عليه جميع المراضع.

(وَفِي سُرْعَةِ شَبَابِهِ مِنَ الغَرَائِبِ) لم تُجْمَع لأحد قبله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أي: في قليل الأعوام صار جَفْرًا، (مَا حَكَتْهُ) أَيْ: أخبرت عنه حليمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وقالت: لَمْ نَزَلْ نَتَعَرَّفُ مِنَ اللَّهِ الزِّيَادَةَ وَالْخَيْرِ حَتَّى مَضَتْ سَنَتَاهُ وَفَصَلْتُهُ، فَكَانَ يَشِبُّ شَبَابًا لَا يَشِبُّهُ الْغِلْمَانُ، فَلَمْ يَبْلُغْ سَنَتَيْهِ حَتَّى كَانَ غُلَامًا جَفْرًا(٥١). والجَفْر: ما بعد المفطوم، لأن العرب تُسمِّي الولد في بطن أمه جنينًا، وبعد الولادة منفوس ثم مفطوم ثم جَفْر ثم مُراهق.

وسرعة شبابه وكمال عقله من صغره لينال (الأَفْضَلِيَّة) أَيْ: لفضائل كرامته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهذه (دِلَالَاتٌ) إشارات واضحات (عَلَى عِظَمِ اعْتِنَاءِ) حسن رعاية (البَرِّ بِهِ) اسم من أسماء اللَّه تعالى أَيْ: أن اللَّه كفله وهو يُرَبِّيهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ([لِأَنَّهُ يَتِيمًا كَانَ]).

(وَفِي) سورة (الضُّحَى أَسْرَارٌ) أَيْ: عُلُوّ (مِنَ الرَّحِيمِ الكَرِيمِ مَتْلِيَّة) مُنْزَلة في القرآن (مِنْ إِيوَاء) أَيْ: حفظ (وَإِهْدَاء) أَيْ: واهتداء إلى صراط مستقيم (وَإِغْنَاء) أَيْ: أغناه عن غيره، (وَقَدْ [حَان]) أَيْ: حَلَّ ونزل، وهي قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى﴾[الضحى:٦-٨]، وقوله تعالى: ﴿وَالضُّحَى﴾ إلخ.

---

(٥١) ذكره ابن إسحاق في "سيرته".

أقسم سبحانه وتعالى على إنعامه على رسوله وإكرامه وإعطائه ما يرضيه أَيْ: نور الضحى الذي يوافى بعد الظلام، فطابق للمقسم به عليه ونور الوحي الذي وافاه بعد ظلمة احتباسه عنه، فإن الذي اقتضت رحمته أن لا يتركهم في ظلمة الغي والجهل، بل يهديهم بنور الوحي والنبوة إلى مصالح دنياهم وآخرتهم. وانظر "المواهب".

وقوله تعالى: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾ تنزيه جلال لسَيِّدِنا مُحمَّد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يتصل به القلاء، ولما يقتضي الرد عليهم الإتيان بالصيغة الماضية لتكن بينهم في قوله: تركه، وقلان: نسبة على نفي ما ذكره غير مختص بإعانتي بل هو مستمر دائم تأمينًا لرسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قوله تعالى: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى﴾ محبتنا لك وإنعامنا عليك وإكرامنا لك في ازدياد وترقّي. وقوله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ إلخ قال في "المواهب": دَلَّت هذه الآية على أن اللَّه عَزَّ وَجَلَّ يعطيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كل ما يرضيه مما تقتضيه المحبة.

(وَفِي حُسْنِ) جمال (نَشْأَتِهِ) مُنزَّهًا مُطهَّرًا محفوظًا من كل عيب، (وَنَظَافَتِهِ) الحسية والمعنوية (مَعَ صِغَرِهِ) أَيْ: من صغره (تَأْدِيبُ أَدَبِيَّة) أحسن اللَّه تأديبه، وألهمه ربه حسن الأدب معه. (وَإِصْبَاحُهُ) صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (صَقِيلاً) ظريفًا أملسًا من كل رغب، (دَهِينًا) نعومة جسده ولينه وبروق

النوار فيه كأنه دهين، (كَحِيلاً يُشِيرُ لِهَذَا الدَّوَرَان) أَيْ: دوائر العينان من شدة حسنهما وكأنهما بهما كحل.

(وَبَرَكَتُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) حاصلة (فِي الأَكْلِ) يُبَارَك فيه حتى يشبع بمن معه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وذلك (مِنْ صِغَرِهِ) صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (إِذَا حَضَرَ) النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (فِيهِ) أَيْ: في الأكل فهي (ظَاهِرَةٌ مَشْهُورَةٌ) في كتب الحديث (مَرْمُوزِيَّة) أَيْ: مكتوبة، (وَهُوَ أَنَّهُ) صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (إِذَا أَكَلَ) أَيْ: حضر في الأكل (مَعَ عَمِّهِ أَبِي طَالِبٍ) بن عبد المُطَّلِب، لأنه كان يكفل رسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، (وَ) أكل مع (آلِهِ) أهل بيت أبي طالب (شَبِعُوا بِغَيْرِ تَوَان) أَيْ: تكفوا من طعام من غير قيامهم الأوَّل من بركته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، (وَإِذَا غَابَ) أَيْ: لم يحضر معهم (خَرَجَتْ) أَيْ: ذهبت عنهم (تِلْكَ البَرَكَةُ) التي كانت في حضوره صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، (فَلَمْ تَشْبَعِ الجَمْعِيَّة) إلا بقانونهم المُعترف عندهم.

وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: لما تُوفِّي عبد المُطَّلِب كفَلَ المُصْطَفَى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أبو طالب وأحَبَّهُ حُبًّا عظيمًا، ويخصه بأنفس الأكل، وكان عياله إذا أكلوا جميعًا وأفرد لم يشبعوا، وإذا أكل المُصطفى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شبعوا، وكان يُؤخِّر الغداء والعشاء حتى يحضر ويأكل معهم فيفضل الطعام، وإذا لم يكن معهم لم يكفهم، وإن كان لبنًا شرب أوَّلهم، ثم ينال العيال العقب فيشربون منه فيردون ويقول أبو طالب: أنه لمبارك. وكان الصبيان يصبحون رُمْصًا شُعْثًا، ويصبح

رسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دهينًا كحيلاً اهـ. والرَّمَص: وسخ أبيض يجتمع في العين.

(وَثَمَّ مِنْ عِظَمِ قَدْرِهِ) صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (مَا يَكِلُّ عَنْهُ الوَصْفَان) خُلقه وخَلقه، (فَتَأَهَّبْ) تجَرَّدْ (بِتَفْرِيغِ) إخلاء (سِرِّكَ لِحُبِّ) صاحب (هذِهِ النَّشْأَةِ المَحْفُوظِيَّة) أَيْ: المعصومة (وَتَوَجَّهْ) بكُلِّك (لِإِنْزَالِ) ورود (المَوَدَّةِ) المحبة (فِيهِ) صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (سِرًّا) في قلبك (وَإِعْلَان) جهرًا بلسانك.

تنبيهٌ: أخرج ابن عساكر عن عن داود بن الحُصين قال: شبَّ رسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أفضل قومه مروءة وأحسنهم خلقًا، وأكرمهم مخالطة وأحسنهم جوارًا وأحسنهم حلمًا وأمانة، وأصدقهم حديثًا، وأبعدهم من الفحش والأذى، ما رآه ملاحيًا ولا مماريًا أحدًا، حتى سمَّاه قومه الأمين.

وأخرج الشيخان عن جابر بن عبد اللَّه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أن النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان ينقل حجارة الكعبة وعليه إزار، فقال العباس: يا ابن أخي لو حللت إزارك فجعلته على منكبيك دون الحجارة، فجعله على منكبيه فسقط مغشيًا عليه، فما رئي بعد ذلك اليوم عريانًا.

وأخرج أبو نُعَيْم عن عائشة: أن المُصْطَفَى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: سمعتُ زيد بن نفيل يعيب ما ذبُح لغير اللَّه، فما ذقتُ شيئًا ذُبح على النُّصُب حتى أكرمني اللَّه برسالته.

وَعِنْدَ حَلِيمَةَ مَعَ أَخِيهِ كَانَ يَرْعَى غَنَمَهُمُ المَسْمِيَّة ۞ فَكَانَ يُظِلُّهُ الغَمَامُ وَقَدْ صَحَّ ذَلِكَ فِي غَيْرِ مَكَان ۞ وَجَاءَهُ ذَاتَ يَوْمٍ وَهُوَ يَرْعَى الغَنَمَ عُصْبَةٌ مَلَكِيَّة ۞ قِيلَ ثَلَاثَةٌ وَقَالَ بَعْضُهُمْ بَلِ اثْنَان ۞ وَفِي يَدِ أَحَدِهِمْ طِسْتٌ مِنَ الأَلْوَانِ الذَّهَبِيَّة ۞ وَهُوَ مَمْلُوءٌ ثَلْجاً بِغَيرِ زَيْغٍ وَلَا بُهْتَان ۞ فَشَقَّا صَدْرَهُ الشَّرِيفَ وَاسْتَخْرَجَا مِنهُ المُضْغَةَ القَلْبِيَّة ۞ ثُمَّ شَقَّا قَلْبَهُ فَأَخْرَجَا مِنْهُ عَلَقَةً سَوْدَآءَ فَطَرَحَاهَا مِنْ ثَمَّ لِيُطَهِّرَان ۞ ثُمَّ غَسَلَا بَطْنَهُ بِذلِكَ الثَّلْجِ حَتَّى تَرَكَا تِلْكَ المُضْغَةَ مَنْقِيَّة ۞ فَخَتَمَاهَا بِخَاتَمِ النُّورِ فَمَلَآهَا حِكْمَةً وإِيمَان ۞ ثُمَّ قَالَ جِبْرِيلُ قَلْبٌ وَكِيعٌ شَهَادَةً مِنْهُ حَقِّيَّة ۞ أَيْ شَدِيدٌ وَفِيهِ يَا بُنَيَّ عَيْنَانِ تُبْصِرَان ۞ فَمَا هُوَ إِلَّا أَنْ وَلَّيَا عَنْهُ فَصَارَ يَرَى الْأَمْرَ مُعَاينَةً عِيَانِيَّة ۞ وَكَانَ لَهُ كَمَا صَحَّ أُذْنَانِ لِلوَقَائِعِ تَسْمَعَان ۞ ثُمَّ قَالَ لَهُ زِنْهُ بِعَشَرَةٍ مِنْ أُمَّتِهِ الخَيْرِيَّة ۞ فَوَزَنَهُ فَرَجَحَ بِهِمْ وَهَيْهَاتَ أَنْ يَزِنَهُ الكَوْنَان ۞ ثُمَّ قَالَ لَهُ زِنْهُ بِمِائَةٍ مِنْ أُمَّتِهِ الأُخْرَوِيَّة ۞ فَوَزَنَهُ فَرَجَحَ بِهِمْ كَمَا صَحَّحَهُ الحَبْرَان ۞ ثُمَّ قَالَ زِنْهُ بِأَلْفٍ مِنْهُمْ لِتَتِمَّ مِنَ اللَّهِ وَالخَلْقِ الشَّهَادَةُ العَدْلِيَّة ۞ فَوَزَنَهُ فَرَجَحَ فَقَالَ لِصَاحِبِه لَوْ وَزَنْتَهُ بِأُمَّتِهِ لَوَزَنَهَا مُرَجِّحُ المِيزَان ۞ ثُمَّ ضَمُّوهُ إِلَى صُدُورِهِمْ وَقَبَّلُوا رَأْسَهُ وَقَالُوا لَنْ تُرَاعَ يَا سَيِّدَ جَمَاعَةِ النُّبُوَّةِ وَالرُّسْلِيَّة ۞ فَلَوْ تَدْرِي مَا يُرَادُ بِكَ مِنَ الخَيْرِ وَالهَدَيَان ۞ فَوَحَقِّكَ عَلَى اللَّهِ لَقَرَّتْ عَيْنَاكَ الجَمِيلَةُ الحُسْنِيَّة ۞ وَكَانَ الأَمْرُ فِيهِ الجُودُ السَّارِي إِلَى سَائِرِ العَالَمَان ۞ وَقَالَا لَهُ مَا أَكْرَمَكَ عَلَى اللَّهِ يَا خَيْرَ مَنْ وَطِئَ الأَرْضَ الفَتْقِيَّة ۞ إِنَّ اللَّهَ مَعَكَ وَمَلَائِكَتَهُ فَمَا عَلَيْكَ مِنْ خَوْفٍ بَعْدَ هَذَا العِصْمَان ۞ ثُمَّ لَمْ يَزَلْ هَكَذَا

وَهُوَ يَكْبُرُ وَدُعِيَ الْأَمِينَ لِأَمَانَتِهِ القَرِيحِيَّة ۞ وَتَزَوَّجَ بِخَدِيجَةَ وَهُوَ ابْنُ خَمْسٍ وَعِشْرِينَ الحَائِزَةِ القَصْرَان ۞ وَسَافَرَ الشَّامَ فِي تِجَارَةٍ وَكَانَتْ تُظَلِّلُ عَلَيْهِ جَمَاعَةٌ مِنَ المَلَائِكَةِ المَعْصُومِيَّة ۞ وَرَأَتْ خَدِيجَةُ مَعَ نِسَاءٍ حِينَ قُدُومِهِ يُظِلَّانِهِ مَلَكَان ۞ فَذَكَرَتْ ذَلِكَ لِمَيْسَرَةَ فَأَخْبَرَهَا أَنَّهُ رَأَى ذَلِكَ مُنْذُ خَرَجَ مَعَهُ فِي السَّفَرِيَّة ۞ فَيَا عَظِيمَ شَأْنِكَ يَا رَسُولَ المَلِكِ الدَّيَّان ۞

ثم شرعَ المُصَنِّف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في الباب الثامن جعله اللَّه من حزبه الآمن:

(وَ) قد كان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (عِنْدَ حَلِيمَةَ) مرضعته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (مَعَ أَخِيهِ) من الرضاع، (كَانَ يَرْعَى غَنَمَهُمُ المَسْمِيَّة) التي ظهرت فيها البركة، (فَكَانَ يُظِلُّهُ الغَمَامُ) أَيْ: يُظِلُّهُ من الحر إكرامًا وتعظيمًا. (وَقَدْ صَحَّ ذَلِكَ) في الأخبار (فِي غَيْرِ مَكَان) صحَّحهُ غير واحد من المُحَدِّثين.

أخرج ابن عساكر عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: كانت حليمة لا تدعه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يذهب مكانًا بعيدًا، فغفلت عنه فخرج معه إخوته إلى البهم، فخرجت تطلبه حتى وجدته مع أخته فقالت: في هذه الحرة؟، فقالت أخته: يا أُمَّهْ ما وجد أخي حرًا، رأيت غمامة تظل عليه إذا وقف وقفت وإذا سار سارت، حتى انتهى إلى هذا الموضع.

(وَجَاءَهُ) صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (ذَاتَ يَوْمٍ) من الأيام (وَهُوَ يَرْعَى الغَنَمَ) أَيْ: وهو في حال رعيه إذ نزل عليه (عُصْبَةٌ) جماعة (مَلَكِيَّة) من الملائكة

المُقرّبين، (قِيلَ) هم: (ثَلَاثَةٌ) كرواية ابن عساكر، (وَقَالَ بَعْضُهُمْ) كابن إسحاق: (بَلْ) هم (اثْنَان وَفِي يَدِ أَحَدِهِمْ طِسْتٌ) إناء (مِنَ الأَلْوَانِ) المنطبقة من الألوان (الذَّهَبِيَّة) أَيْ: خالص الذهب، (وَهُوَ مَمْلُوءٌ ثَلْجًا) الثلج المعروف: ما ينزل مائعًا ويجمد في الأرض، والمراد به العِلْم والحِكَم، (بِغَيْرِ زَيْغٍ) خطأ، في هذه الرواية (وَلَا بُهْتَان) مطعن في روايتهما.

فقيل: واحد من الملائكة وقيل: فأضجعاه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (فَشَقَّا صَدْرَهُ الشَّرِيفَ وَاسْتَخْرَجَا مِنهُ) أَيْ: من جوفه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (المُضْغَةَ) اللحمة (القَلْبِيَّة) التي هي مخزن الأسرار، (ثُمَّ) قدم الثاني من الملائكة فـ(شَقَّا قَلْبَهُ) صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (فَأَخْرَجَا مِنْهُ) أَيْ: من داخله (عَلَقَةً) من دم (سَوْدَاءَ فَطَرَحَاهَا) أَيْ: ألقياها بعيدًا منه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، و(مِنْ ثَمَّ) مرادهما (لِيُطَهِّرَان) من نزغات الشيطان.

(ثُمَّ) قدم الثالث (غَسَلَا بَطْنَهُ) صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (بِذلِكَ الثَّلْجِ) البارد (حَتَّى تَرَكَا تِلْكَ المُضْغَةَ) أَيْ: القلب (مَنْقِيَّة) أَيْ: مُطَهَّرة، (فَخَتَمَاهَا بِخَاتَمِ النُّورِ فَمَلَآهَا حِكْمَةً وإِيمَان) أَيْ: تقدير كلام المُصنِّف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ملآها بعد طهارتهما حِكْمةً وإيمانًا، ثم ختم أعلاها بخاتم من الأنوار الإلهية.

وشاهد ذلك ما رواه أبو نُعَيْم وابن عساكر قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: كنت مسترضعًا في بني سعد بن بكر، فبينما أنا ذات يوم في بطن وادي مع أتراب لي من الصبيان، فإذ برهط من ثلاث معهم طست من ذهب مملوء ثلجًا، فأخذوني من بين أصحابي، وانطلق الصبيان هربًا مُسرعين

إلى الحي، فعمد أحدهم فأضجعني على الأرض إضجاعًا لطيفًا، ثم شقَّ ما بين مفرق صدري إلى منتهى عانتي، وأنا أنظر إليه فلم أجد لذلك مَسًّا، ثم أخرج أحشاء بطني ثم غسلها بذلك الثلج ثم أعادها مكانها.

ثم قام الثاني فقال لصاحبه: تنح، ثم أدخل يده في جوفي وأخرج قلبي وأنا أنظر إليه فصدعه، ثم أخرج قطعة سوداء فرمى بها، ثم أشار بديه كأنه يتناول شيئًا، فإذا بخاتم من نور يحار الناظر نوره، فختم به قلبي فامتلأ نورًا، وذلك نور النبوة والحكمة، فوجدتُ برد ذلك الخاتم في قلبي دهرًا، ثم قال الثالث لصاحبه: تنح، فمرّ بيده بين مفرق صدري إلى منتهى عانتي، فالتأم ذلك الشق بإذن الله تعالى، ثم أخذ بيدي فأنهضني من مكاني نهضًا لطيفًا.

(ثُمَّ قَالَ جِبْرِيلُ قَلْبٌ وَكِيعٌ) أَيْ: قَوِيٌّ على تجَلِّي الأسرار، وذلك (شَهَادَةً مِنْهُ) أَيْ: جبريل للنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (حَقِّيَّة أَيْ) على الحق (شَدِيدٌ) على تحمُّل الطاعة، (وَفِيهِ) في قلبه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (يَا بُنَيَّ) يا أيها المُنْتَسِب إلى طريق أهل الله، (عَيْنَانِ) في باطن قلبه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، (تُبْصِرَان) الحق، (فَمَا هُوَ إِلَّا أَنْ وَلَّيَا) أَيْ: انصرفا (عَنْهُ فَصَارَ يَرَى) يبصر (الْأَمْرَ) أَيْ: عجائب الملكوت عيانًا أَيْ: (مُعَاينَةً) مشاهدة (عِيَانِيَّة) أَيْ: يرى كل شيء على حقيقته من غير خيال.

(وَكَانَ) صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (لَهُ كَمَا صَحَّ) في الخبر (أُذْنَانِ لِلوَقَائِعِ) أَيْ: الأمور التي تقع في الملكوت، (تَسْمَعَان) وكذلك تسمعان لكلام الله تعالى في مناجاته له تعالى.

(ثُمَّ قَالَ) جبريل (لَهُ) لميكائيل (زِنْهُ بِعَشَرَةٍ مِنْ أُمَّتِهِ الخَيْرِيَّة) وأنبياء، كما ثبت أن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ سأل ربه أن يجعله من أُمَّة مُحَمَّد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وجعله منهم، بأن يكون هو صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في كفة وهم في كفة أخرى، وميكائيل أخذ بلسان الميزان، (فَوَزَنَهُ) صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (فَرَجَحَ) صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (بِهِمْ وَهَيْهَاتَ أَنْ يَزِنَهُ الكَوْنَان) الدنيا والآخرة وما فيهن.

(ثُمَّ قَالَ لَهُ زِنْهُ بِمِائَةٍ مِنْ أُمَّتِهِ الأُخْرَوِيَّة) أهل الصفا (فَوَزَنَهُ) صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (فَرَجَحَ بِهِمْ) بل ولم يساووا رُبْع قدره، (كَمَا صَحَّحَهُ) أثبت هذه الرواية (الحَبْرَان) كابن إسحاق وابن يزيد.

(ثُمَّ قَالَ) جبريل لميكائيل: (زِنْهُ بِأَلْفٍ مِنْهُمْ) أَيْ: من صُلحاء أمته (لِتَتِمَّ) تُكمِل (مِنَ اللَّهِ) المزية وإظهار فضله (وَ) عظيم (الخَلْقِ) أَيْ: خلقه (الشَّهَادَةُ العَدْلِيَّة) بفضله على سائر الخلق، (فَوَزَنَهُ) صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (فَرَجَحَ) بهم، (فَقَالَ) جبريل (لِصَاحِبِهِ) ميكائيل: (لَوْ وَزَنْتَهُ) أَيْ: وضعته في كف الميزان (بِأُمَّتِهِ) جميعًا (لَوَزَنَهَا مُرَجَحُ المِيزَان) أَيْ: لرجح.

وأخرج ابن إسحاق عن خالد بن معد: أن أُناسًا عن أصحاب رسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ [أنه] قال: اسْتُرْضِعْتُ في بني سعد بن بكر، فبينما

أنا مع أخ لي خلف [بيوتنا] نرعى بَهْمًا، إذ أتاني رجلان عليهما ثياب بيض، بيد أحدهما طست من ذهب مملوء ثلجًا، فأخذوني فشقَّا صدري، ثم استخرجا قلبي فشقَّاه فاستخرجا منه علقة سوداء فطرحاها، ثم غسلا قلبي وبطني بالثلج حتى أنقياه، ثم قال أحدهم لصاحبه: زنهُ بعشرة من أمته فوزنني بهم فوزنتهم، فقال: دعه، فلو وزنته بأمته لوزنها. انتهى الحديث.

فإنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يوازنه أحد وإنما ذلك للتقريب والمفهوم غير معتبر. قال في "المواهب": والمراد بالوزن في قوله: زنه بعشرة من أمته إلخ: الوزن الاعتباري فيكون المراد الرجحان في العقل، وهو كذلك.

(ثُمَّ) أنهضوه الملائكة و(ضَمُّوهُ) أَيْ: حضنوه (إِلَى صُدُورِهِمْ) كل منهم ضمَّه إلى صدره، (وَقَبَّلُوا رَأْسَهُ) تبرُّكًا به صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، (وَقَالُوا) له: (لَنْ تُرَاعَ) أَيْ: لا تخاف منا، إنما نحن رُسل ربك نأتيك منه بالبشائر والأُنس والرضوان، لك العزة (يَا سَيِّدَ جَمَاعَةِ النُّبُوَّةِ). وحقيقة النَّبِيّ: ما جاءه الوحي ولم يؤمر بتبليغٍ، (وَالرُّسْلِيَّة) هم مائة ألف وأربعة وعشرون ألفًا، وأنت أفضلهم.

(فَلَوْ تَدْرِي) أَيْ: تعلم بما أعدّ اللَّه لك و(مَا يُرَادُ بِكَ مِنَ الخَيْرِ) أَيْ: أكمل إيمان أولي العزم من الرسل، (وَالهَدَيَان) بعلو القرآن وشرح الصدور ورفع الذكر ورفع الدرجات، (فَوَحَقِّكَ) أَيْ: قدر (عَلَى اللَّـهِ) أقسموا به صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لمراعاتهم قول اللَّه: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ﴾ إلخ[الحجر: ٧٢]، (لَقَرَّتْ) أَيْ:

سرت عيناك أَيْ: لتقرّ عيناك بما ربك حباك، (الجَمِيلَةُ الحُسْنِيَّة) أَيْ: الكاملة الحسنة.

(وَكَانَ الأَمْرُ فِيهِ) أَيْ: جماله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قبل البعث (الجُودُ) الكرم (السَّارِي) أَيْ: العامّ (إِلَى سَائِرِ العَالَمَان) العلوِيّ والسفلِيّ، ولم يساويه أحد في الجود وهو مكتمل برعاية الصمد.

(وَقَالَا) جبريل [وميكائيل] (لَهُ) صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (مَا) للتعجُّب، (أَكْرَمَكَ عَلَى اللَّهِ يَا خَيْرَ) أفضل (مَنْ وَطِيءَ) مشى على (الأَرْض الفَتْقِيَّة) أَيْ: المُنفجرة بالعيون، (إِنَّ اللَّهَ مَعَكَ) بحفظه ورعايته، (وَمَلَائِكَتَهُ) حافِّين بك، (فَمَا عَلَيْكَ) صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (مِنْ خَوْفٍ) وقوع في محرم أو مكروه أو لَهْو، (بَعْدَ هَذَا العِصْمَان). وذلك إشارة لحديث أبي يعلي عن جابر بن عبد اللَّه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: كان الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يشهد أَيْ: حضورهم مع المشركين مشاهدهم، فسمع ملَكَيْن خلفه، وقال أحدهما لصاحبه: اذهب بنا حتى نقوم خلف رسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. الحديث.

(ثُمَّ لَمْ يَزَلْ) معصومًا (هَكَذَا وَهُوَ يَكْبُرُ) كلما زاد كبرًا زاد عجائب من صدق وكرامة وحسن خلق، (وَ) لذلك (دُعِيَ الْأَمِينَ) قبل البعثة (لِأَمَانَتِهِ القَرِيحِيَّة) أَيْ: طبيعة الأمانة والصدق، وكان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُدْعَى

قبل النبوة بالأمين. قال [ابن إسحاق]: كان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُسمَّى الأمين بما جمع الله فيه من الأخلاق الصالحة(٥٢).

وكان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يتحاكمون إليه في الجاهلية قبل الإسلام لما استقر عندهم من عدله وإصابة رأيه وصدقه وأمانته وظهور فضله المُسَمَّى بل على أتم وجه وأحسنه على يديه، يستحسن ذلك أهل العقول السليمة، ويصوِّبهُ أصحاب الأراء المستقيمة.

وذكر ابن إسحاق عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: قَالَ النَضْرُ بْنُ الْحَارِثِ لِقُرَيْشٍ: قَدْ كَانَ مُحَمَّدٌ فِيكُمْ غُلامًا حَدَثًا أَرْضَاكُمْ فِيكُمْ وَأَصْدَقُكُمْ حَدِيثًا وَأَعْظَمُكُمْ أَمَانَةً، حَتَّى إِذَا رَأَيْتُمْ فِي صُدْغَيْهِ الشَّيْبَ وَجَاءَكُمْ بِمَا جَاءَكُمْ بِهِ قُلْتُمْ سَاحِرٌ، لَا وَاللَّهِ مَا هُوَ بِسَاحِرٍ.

(وَتَزَوَّجَ) صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (بِخَدِيجَةَ) بنت خويلد، (وَهُوَ) صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (ابْنُ خَمْسٍ وَعِشْرِينَ) وخديجة بنت خمسة وثلاثين. وقيل: أربعين.

وبسبب ذلك مع العناية السابقة: أن خديجة امرأة تاجرة ذات ثراء ومال تستأجر الرجال على مالها بالقراض، فلما بلغها عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من صدق وأمانة وكرم أخلاقه بعثت إليه، فعرضت عليه أن يخرج لها في مالها تاجرًا إلى الشام، وتعطيه أفضل ما تعطي غيره من التجار، مع غلام لها ميسرة، فقبل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وخرج

---

(٥٢) ذكره القاضي عياض في "الشفا".

في مالها مع غلام لها، حتى نزل الشام فنزل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في ظل شجرة قريبًا من صومعة راهب، واطلع الراهب إلى ميسرة فقال له: مَنْ هذا الرجل الذي نزل تحت الشجرة؟، فقال له: هذا رجل قرشي من أهل الحرم، فقال له: ما نزل تحت الشجرة قط إلا نبي.

وقوله: (الحَائِزةِ القَصْرَان) أَيْ: قَصْرُه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الدنيا ومع قَصْره في الجنة، (وَسَافَرَ) صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى (الشَّام فِي تِجَارَةٍ) بمال خديجة بالمُضَاربة[٥٣]، (وَكَانَتْ تُظَلِّلُ عَلَيْهِ) في حال سيره إذا اشتد الحر (جَمَاعَةٌ مِنَ المَلَائِكَةِ المَعْصُومِيَّة) أهل الحفظ.

(وَرَأَتْ خَدِيجَةُ) بنفسها (مَعَ نِسَاءٍ) من قريش (حِينَ قُدُومِهِ) صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى مكة في ساعة الظهيرة وخديجة في عِلِّيَّةٍ[٥٤] لها، فرأت رسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومعها نساء (يُظِلَّانِهِ مَلَكَانَ)، وهو على بعيره، فعجبن منه، (فَذَكَرَتْ ذَلِكَ) (لِـ)غلامها (مَيْسَرَةَ) بما رأته منه، وما سمعت من أخبار الأحبار والكهنة، (فَأَخْبَرَهَا) ميسرة (أَنَّهُ رَأَى ذَلِكَ) التظليل (مُنْذُ) حين (خَرَجَ مَعَهُ فِي السَّفَرِيَّة) وأيضًا قال لها: وأنا رأيتُ ذلك.

وَقَالَ لَهُ رَجُلٌ: احْلِفْ بِاللَّاتِ وَالْعُزَّى، فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَا حَلَفْتُ بِهِمَا قَطُّ، فَقَالَ خَصْمُهُ لِمَيْسَرَةَ: هَذَا نَبِيٌّ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّهُ الَّذِي تَجِدُهُ أَحْبَارُنَا مَنْعُوتًا فِي كُتُبِهِمْ.

---

(٥٣) المضاربة: أن تعطي مالًا لغيرك يتجر فيه فيكون له سهم معلوم من الربح.

(٥٤) العِلِّيَّةُ: الغُرْفَةُ في الطابق الثاني من الدَّارِ فوقه، وجمعها عَلَالِي.

وكان ميسرة يرى في مسيره ملكين يظلانه وأخبر خديجة بذلك، فلما رأت خديجة تكاثر الدواعي وإظهار البراهين، طلبت قربه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فكانت هي الخاطبة له صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أولاً، ثم خطب هو ثانيًا.

أخرج النيسابوري أنها قالت للمُصْطَفَى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: اذهب إلى عمك فقل له عجّل إلينا بالغداة، فلما جاءت قالت: يا أبا طالب ادخل على عمي كلَّمهُ يزوّجني من ابن أخيك، فقال: لا تستهزئي، فقالت: هذا صنع اللَّه، فدخل مع عشيرة من قومه على عمها. فخطب أبو طالب وقال: الحمد للَّه الذي جعلنا من ذرية إبراهيم وزرع إسماعيل. إلى أن قال: ثم إن ابن أخي لا يوزن برجل إلا رجح به، وإن كان في المال قلّ فإنه ظل زائد وحال حائل، ومن محمد من قد عرفتم، ثم خطَبَ عمها فزوَّجها منه.

وهذا تأييد الرحمن له من حين صغره صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، (فَيَا عَظِيمَ شَأْنِكَ) قدرك (يَا رَسُولَ المَلِكِ) أَيْ: مالك الملك (الدَّيَّان).

ثُمَّ أَخَذَ يَتَحَنَّثُ فِي جَبَلِ حِرَاءَ فِى المَغَارَةِ الَّتِي هِيَ بِالخَيْرَاتِ حَرِيَّة ۞ وَيَعُودُ إِلَى أَهْلِهِ وَيَرْجِعُ إِلَيْهِم فِي بَعْضِ الأَحْيَان ۞ فَجَاءَهُ المَلَكُ فَقَالَ لَهُ اقْرَأْ فَقَالَ مَا أَنَا بِقَارِئٍ فَغَطَّهُ غَطَّةً حِلْمِيَّة ۞ ثُمَّ قَالَ لَهُ اقْرَأْ فَقَالَ مَا أَنَا بقَارِئٍ فَغَطَّهُ أُخْرَى بِنُصْحَان ۞ ثُمَّ قَالَ لَه اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ وَذلِك بَدْءُ الوَحْيِ لِلحَضْرَةِ المَحْمُودِيَّة ۞ وَمِنْ ثَمَّ تَوَاتَرَ الأَمْرُ أَحْيَاناً حَتَّى تَمَّ نُزُولُ القُرْآن ۞ وَقَبْلَ أَنْ يُهَاجِرَ بِسَنَةٍ عَلَى الصَّحِيح لِلدِّيَارِ اليَثْرِبِيَّة ۞ جَاءَهُ جِبْرِيلُ فَأَسْرَى بِه إِلَى بَيْتِ المَقْدِسِ كَمَا حَرَّرَهُ الشَّيْخَان ۞ وَأَتَاهُ بِالبُرَاقِ مُلْجَماً فَاسْتَصْعَبَ بِعُنُوفَةٍ بَهِيمِيَّة ۞ فَقَالَ لَهُ جِبْرِيلُ مَا رَكِبَكَ عَبْدٌ أَكْرَمُ عَلَى اللهِ مِنْ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ابْنِ عَدْنَان ۞ ثُمَّ بَعْدَ بيْتِ المَقْدِسِ رَقَى بِهِ إِلَى السَّمَاوَاتِ بَعْدَ أَنْ صَلَّى بِالنَبِيِّينَ وَأُسْقِيَ الشَّرْبَةَ اللَّبَنِيَّة ۞ فَلَقِيَ آدَمَ فِي الأُولَى وَفِى الثَّانِيَةِ ابْنَي الخَالَةِ يَحْيَى وَعِيسَى ذَوِي الإِحْصَان ۞ وَفِي الثَّالِثَّةِ وَجَدَ يُوسُفَ ذَا المَحَاسِنِ الَّذِي افْتَتَنَتْ بِهِ زَلِيخَا الأَوَّلِيَّة ۞ وَفِي الرَّابِعَةِ إِدْرِيسَ الَّذِي قَالَ اللَّهُ فِيهِ وَرَفَعْنَاهُ مَكَاناً عَلِيّاً فِي التِّبْيَان ۞ وَفِي الخَامِسَةِ هَارُونَ ۞ وَفِي السَّادِسَةِ مُوسَى الَّذِي رَدَّهُ لِتَخْفِيفِ الصَّلَاةِ الفَرْضِيَّة ۞ فَرَجَعَتْ بَعْدَ خَمْسِينَ خَمْسًا فِي النَّهَارِ ثَلَاثَةٌ وَفِي اللَّيْلِ فَرْضَان ۞ وَفِي السَّابِعَةِ إِبْرَاهِيمَ مُتَّكِئاً عَلَى البَيْتِ المَعْمُورِ بِالضِّيَاءَاتِ الوُسْعِيَّة ۞ الَّذِي يَدْخُلُهُ كُلَّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ بِحُسْبَان ۞ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَا يَعُودُونَهُ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ البَغْتِيَّة ۞ فَمَا أَعْلَى هَذَا المَقَامَ كَيْفَ وَهُوَ مَقَامُ خَلِيلِ الرَّحْمَن ۞ وَلَمْ يَزَلْ يَرْقَى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى سِدْرَةِ المُنْتَهَى إِلَى

الحَضْـرَةِ العَرْشِيَّة ۞ وَعَلَا الحُجُبَ وَخَاطَبَ مَوْلاَهُ وَرَآهُ كَمَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ عِيَان ۞ وَرَجَعَ وَكُلُّ ذَلِكَ كَانَ فِي بَعْضِ لَيْلَةٍ فَمَا أَعْظَمَ هِـذِهِ المُعْجِـزَاتِ الشَّـهِيرِيَّة ۞ وَأَخْبَرَ قُرَيْشاً فَكَذَّبَهُ أَهْلُ البَغْيِ وَالخُذْلَان ۞ فَجَاءَ بِالعَلَامَاتِ وَأَخْبَرَ بِالعِيرِ الَّتِي كَانَتْ لَهُ مَرْئِيَّة ۞ وَصَدَّقَهُ الصِدِّيقُ لِسَبْقِ العِنَايَةِ لَهُ فَتَيَقَّظْ يَا نَوْمَان ۞

وشرعَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في التاسع أَمَدَّنا اللَّه بمدده الساطع: (ثم أخذ) النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (يَتَحَنَّثُ) يتعبَّد في غار (جَبَلِ حِرَاءَ) يُسَمَّى الآن جبل النور بينه وبين مكة ثلاثة أميال، وهو على يسار السائر من مكة إلى مِنى، (فِي المَغَارَةِ الَّتِي هِيَ بِالخَيْرَاتِ حَرِيَّة) أَيْ: محفوفة بالخيرات، وهو موضع بين صخرات بأعلى جبل النور. وكان رسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يختلِي فيها للتعبُّد زمنًا.

(وَيَعُودُ) أَيْ: يرجع (إِلَى أَهْلِهِ) أَيْ: زوجه خديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا يتزوَّد، (وَيَرْجِعُ إِلَيْهَا) أَيْ: الخلوة للتعبُّد التي في حراء، (فِي بَعْضِ الأَحْيَان) أَيْ: مدة من الأزمان. ففي "صحيح البخاري" عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهَا قالت: «أَوَّلُ مَا بُدِئَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ الْوَحْيِ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ فِي النَّوْمِ، فَكَانَ لَا يَرَى رُؤْيَا إِلَّا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ، ثُمَّ حُبِّبَ إِلَيْهِ الْخَلَاءُ، وَكَانَ يَخْلُو بِغَارِ حِرَاءٍ فَيَتَحَنَّثُ فِيهِ، وَهُوَ التَّعَبُّدُ اللَّيَالِيَ ذَوَاتِ الْعَدَدِ» اهـ.

فالتَّحَنُّث بعد وقوع الرؤيا، وقد استدلوا به على طلب الخلوة والعزلة لأنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أول ما بدأ به من الوحي الرؤية الصالحة ثم حُبِّب إليه الخلاء.

والظاهر أن عبادته كانت الذكر والفكر مع إكثار الخلوة، وهي مقدمات النبوة وكذلك النفور من المخالط حتى من الأهل والمال بالكلية، واستقر في بحر الأذكار فانقطع عن الأضداد فاستشعر حصول المراد، ولم يزل الأُنس يضاعف ومرآته تزداد من الصفا حتى بدأت تباشير الوحي[٥٥].

(فَجَاءَهُ) صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (المَلَكُ) جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ (فَقَالَ لَهُ: اقْرَأْ) أَيْ: أتلو، (فَقَالَ) صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (مَا أَنَا بِقَارِئٍ) أَيْ: لستُ اقرأ امتناعًا، لأنه كان أُمِّيًّا لا يقرأ ولا يكتب، (فَغَطَّهُ) أَيْ: ضَمَّهُ (غَطَّةً حِلْمِيَّةً) أَيْ: برفقٍ، (ثُمَّ) أرسله وانجلت عنه حاله، و(قَالَ لَهُ: اقْرَأْ فَقَالَ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ) قاله إخبارًا بالواقع، (فَغَطَّهُ أُخْرَى) ثالثة (بِنُصْحَانَ) أَيْ: مزيد التأهُّل إلى لقاء الملك إلى التلقِّي منه. ([لِلحَضْرَةِ المَحْمُودِيَّة]).

(ثُمَّ قَالَ اقْرَأْ) أتلو (بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ) فقرأ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، (وَذَلِكَ بَدْءُ) أَيْ: أول (الوَحْيِ) أصله: المعنى المُلقَى في النفس في خفاءٍ، ثم قيل: الكلام الإلهي الذي يُلقى إلى الأنبياء وحي، وهو أنواع فراجعه في كتب الأئمة.

---

(٥٥) عزاه محمد بن أحمد بنيس في "شرح الهمزية" للمناوي.

(وَمِنْ ثَمَّ تَوَاتَرَ [الأَمْرُ]) أَيْ: توالى نزول الآيات شيئًا فشيئًا على حسب الوقائع، ([أَحْيَانًا] حَتَّى تَمَّ نُزُولُ القُرْآن) في ثلاثة وعشرين سنة.

وأما قصة مبعثه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما بلغ أربعين سنة وكبر بَعَثَهُ اللَّه يوم الاثنين لسبع عشر من رمضان رسولاً إلى الخلق كافة ورحمة لهم، وذلك حتى جاءه جبريل بغار حراء فقال: اقرأ، قال: ما أنا بقارئ، فغطَّه حتى بلغ منه الجهد، ثم أرسله فقال له: اقرأ، قال: ما أنا بقارئ، فغطَّه ثم أرسله وقال له: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ حتى بلغ: ﴿مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾[العلق: ١-٥]، فرجع بها صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يرجف فؤاده حتى دخل على خديجة، فقال: زَمِّلُونِي، فزمَّلوه حتى ذهب عنه الرَّوْع فَقَالَ: يَا خَدِيجَةُ مَا لِي؟، وَأَخْبَرَهَا بِمَا وَقَعَ لَهُ، فَقَالَتْ: وَاللَّهِ لَا يُخْزِيكَ اللَّهُ أَبَدًا، إِنَّكَ لَتَصِل الرَّحِمَ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ(٥٦).

ثم انطلقت به إلى عمها ورقة بن نوفل، وهو ممن تنَصَّر من العرب وعرف الإنجيل، فقالت له: اسمع من ابن أخيك، فأخبره صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما رأى، فقال: هذا النَّامُوس الذي أنزل على موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، ليتني كنت جَذَعًا -أَيْ: شابًا لأنه كان شيخًا كبيرًا-، إذ يخرجك قومك فأنصرك نصرًا مؤزَّرًا، قال: أو مُخْرِجِيَّ هم؟، قال: نعم، لم يأت رجل قط بما جئت به إلا عودي. ثم لم يلبس ورقة إلا أيامًا قليلة ثم تُوفِّي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

---

(٥٦) أخرجه البخاري ومسلم وأحمد وأبو داود الطيالسي وعبد الرزَّاق والحاكم وابن حبان والبيهقي.

(وَقَبْلَ أَنْ يُهَاجِرَ بِسَنَةٍ عَلَى الصَّحِيحِ) كما صَحَّ (لِلدِّيَارِ) البلاد (اليثربية) وسُمِيَّت المدينة المُنَوَّرة، (جَاءَهُ) صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (جِبْرِيلُ) عَلَيْهِ السَّلَامُ (فَأَسْرَى بِهِ) في الليل (إِلَى بَيْتِ المَقْدِسِ) أَيْ: مسجد إيليا بالشام، بينه وبين مكة أربعون يومًا، (كَمَا حَرَّرَهُ) أَيْ: رأى بالتحقيق (الشَّيْخَان) البُخاري ومُسلم.

(وَأَتَاهُ) جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ (بِالْبُرَاقِ) وهو دابة بيضاء فوق الحمار ودون البغل، يضع حافره عند منتهى طرفه في السير، (مُلْجَمًا) مُسْرَجًا (فَاسْتَصْعَبَ) نَفَرَ (بِعُنُوفَةٍ بَهِيمِيَّة) أَيْ: كما أن الدواب إذا أتوها للركوب تنفر فرارًا من الركوب عليها.

(فَقَالَ لَهُ) أَيْ: للبُرَاق (جِبْرِيلُ: مَا رَكِبَكَ) ما استوى على ظهرك (عَبْدٌ) من العبيد المُقَرَّبين، (أَكْرَمُ عَلَى اللَّهِ مِنْ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ابْنِ عَدْنَان) بل هو أكرم الخلق وأفضلهم على الإطلاق، فكيف تنفري منه؟!.

قال في "المواهب": فإن قيل: ما وجه استصعاب البُرَاق عليه؟. أُجيبَ: بأنه تنبيهٌ على أنه لم يتذلَّل قبل ذلك لأحد، وقيل: تِيهًا وفرحًا بركوبه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

(ثُمَّ بَعْدَ) الإسراء به إلى (بَيْتِ المَقْدِسِ رَقَى) أَيْ: عرج به صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (إِلَى السَّمَاوَاتِ) السبع (بَعْدَ أَنْ صَلَّى) فِي بيت المقدس (بِالنَبِيِّينَ) أَيْ: أَمَّهُم كما في الحديث: دخلتُ بيت المقدس فرأيتُ [النَّبيّين] صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَسَلَّمَ [بين] قائم وراكع، ثم أَذَّن مُؤذِّن فأقيمت الصلاة فقمنا

صفوفًا ننتظر مَنْ يَؤُمُّنَا، فأخذ بيدي جبريل فقدَّمني فصلَّيْتُ بهم. رواه جماعة.

(وَأُسْقِيَ الشَّرْبَةَ اللَّبَنِيَّة) كما في الحديث: أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أُوتي بِإِنَاءٍ مِنْ خَمْرٍ وَإِنَاءٍ مِنْ لَبَنٍ، وَاخْتَار اللَّبَن، فَقَالَ لَهُ جِبْرِيلُ: اخْتَرْتَ الْفِطْرَةَ[٥٧].

(فَلَقِيَ آدَمَ) عَلَيْهِ السَّلَامُ في السماء (الأُولَى) فرحَّب به وهنَّأه كما سيأتي، (وَفِي) السماء (الثَّانِيَةِ) وجد (ابْنَيْ الخَالَةِ يَحْيَى) بن زكريا (وَعِيسَى) بن مريم عَلَيْهِمَا السَّلَامُ (ذَوِي الإِحْصَان) لأنهما قيل لم يفعلا ذنبًا، وأن اللَّه خصَّهما بالنبوة قبل البلوغ.

(وَفِي) السماء (الثَّالِثَةِ وَجَدَ) لقي فيها نبي اللَّه (يُوسُفَ) بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم. وفي الحديث: «إِنَّ الْكَرِيمَ ابْنَ الْكَرِيمِ ابْنِ الْكَرِيمِ ابْنِ الْكَرِيمِ يُوسُفُ»[٥٨] عَلَى نَبِيِّنَا وَعَلَيْهِمْ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، (ذُو المَحَاسِنِ) والجمال الباهي (الَّذِي افْتَتَنَتْ بِهِ زَلَيْخَا) امرأة العزيز في زمن (الأَوَّلِيَّة) حيث راودته عن نفسها، وقال: معاذ اللَّه.

(وَفِي) السماء (الرَّابِعَةِ) وجد نبي اللَّه (إِدْرِيسَ) وَ﴿كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾[مريم: ٥٦]، (الَّذِي قَالَ اللَّهُ فِيهِ) أَيْ: في مدحه: (﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾[مريم: ٥٧])، قيل: أنه

---

(٥٧) أخرجه مسلم وأبو يعلى والبيهقي.

(٥٨) أخرجه البخاري وأحمد والترمذي والطبراني والحاكم وأبو نعيم.

دخل الجنة حَيًّا، (فِي التِّبْيَان) أَيْ: في القرآن. (وَفِي) السماء (الْخَامِسَةِ) وجد (هَارُونَ) أخ موسى ووزيره في الرسالة.

(وَفِي) السماء (السَّادِسَةِ) لقي كليم الله (مُوسَى) عَلَيْهِ السَّلَامُ (الَّذِي) قال الله فيه: ﴿وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا﴾[مريم: ٥٢]، (الَّذِي رَدَّهُ) رَدَّ النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى رَبِّهِ (لِتَخْفِيفِ الصَّلَاةِ الفَرْضِيَّة) عن أُمَّته المرضية، (فَرَجَعَتْ بَعْدَ) طلب النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومراجعة موسى إليه (بَعْدَ خَمْسِينَ خَمْسًا) وهو عُشْر الخمسين، (فِي النَّهَارِ ثَلَاثَةٌ) أوقات (وَفِي اللَّيْلِ فَرْضَان) وثواب الخمسين لم ينقص، وهذا مجرد الإحسان.

(وَفِي) السماء (السَّابِعَةِ) لقي (إِبْرَاهِيمَ) الخليل (مُتَّكِئًا) أَيْ: مُسندًا ظهره (عَلَى البَيْتِ المَعْمُورِ)، قيل: هو قبلة أهل السماء وهو معمور (بِالضِّيَاءَاتِ) أَيْ: الأنوار (الوُسْعِيَّة) أَيْ: واسعة البهاء وأيضًا (الَّذِي) يَدْخُلُهُ أَيْ: البيت المعمور (كُلَّ يَوْمٍ) من الأيام (سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ) يطوفون (بِحُسْبَان)، كما في الحديث. (ثُمَّ إِنَّهُمْ لَا يَعُودُونَهُ) ويأتي غير الذي دخلوا وهكذا، من يوم خُلِقَتْ الدنيا (إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ البَغْتِيَّة) أَيْ: قرب يوم القيامة عند انقراض الخلق ويبقى الحق.

(فَمَا أَعْلَى هَذَا المَقَامَ) أَيْ: مقام إبراهيم بعد نبيّنا مُحمَّد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، (كَيْفَ) لا يعلو الأنبياء غير نبيّنا (وَهُوَ مَقَامُ خَلِيلُ الرَّحْمَن) ومعنى الخُلَّة: الاعتناء بالمحبة، وهذا في المخلوق وما عند الله غايتها ويستحيل مبادئها.

(وَلَمْ يَزَلْ يَرْقَى) أَيْ: جاز (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) السبع السماوات ورقى (إِلَى سِدْرَةِ المُنْتَهَى) التي ينتهي إليها كل عظيم، و(إِلَى الحَضْرَةِ العَرْشِيَّة) وهي حضرة القُدْس.

(وَعَلَا الحُجُبَ) أَيْ: جاوَزَ الحجب (وَخَاطَبَ) أَيْ: ناجى (مَوْلَاهُ) مشافهةً وأُزيل عنه الحجاب، (وَ) حيث (رَآهُ) بلا كيف ولا جهة، (كَمَا قَالَ) ذلك جماعة منهم (ابْنُ عَبَّاسٍ) رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا (عِيَان) وعليه الجمهور.

(وَرَجَعَ) صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَيْ: توَّجه مُتدلِّيًا وهو مملوء بالأسرار والعلوم الإلهية التي لم ينلها مخلوق غيره صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، (وَكُلُّ ذَلِكَ كَانَ) الأمر وقَعَ (فِي بَعْضِ لَيْلَةٍ) هي ليلة الاثنين كما مرَّ.

(فَمَا أَعْظَمَ هِذِهِ المُعْجِزَاتِ الشَّهِيرِيَّة) ولأنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَرَى من مكة إلى بيت المقدس، ومسافته أربعون يومًا وإلى السماء خمسمائة عام وسُمْكها خمسمائة عام، وكذلك باقي السماوات إلى ما لا يعلمه إلا اللَّه، فطوى تلك المسافات في ساعة من الليل ورجع، وذلك من أعظم المعجزات.

(وَأَخْبَرَ قُرَيْشًا) بما سرى به لبيت المقدس وإلى السماوات (فَكَذَّبَهُ أَهْلُ البَغْيِ وَالخُذْلَان) أَيْ: الإهانة يوم القيامة، وسألوه عن بيت المقدس لأنهم يسافرون إليه في تجارتهم ويعرفونه، (فَجَاءَ)هُ جبريل فأسند له بيت المقدس (بِالعَلَامَاتِ) وعدَّ لهم أبوابه بابًا بابًا.

(وَأَخْبَرَ بِالعِيرِ) أَيْ: قافلة قريش (الَّتِي كَانَتْ لَهُ مَرْئِيَّة) أَيْ: رآها في الطريق، وأخبر بيوم مجيئها فجاءت كما قال، وكذَّبوه وقالوا: ساحر، (وَصَدَّقَهُ) صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أبو بكر (الصِّدِّيقُ) وثبت على تصديقه فيما قال، وذلك (لِسَبْقِ العِنَايَةِ) الأزلية له، بأنه رفيق رسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، (فَتَيَقَّظْ) أَيْ: فتحفَّظْ أيها المُخَاطَب لقصة الإسراء وما احتوت عليه من كل مزية وكثرة خوارق العادة (يَا نَوْمَان) أَيْ: غفلان عنها، أو أَدِّ أو احْفَظ لما ذكرتُ لك في هذا الكتاب يكفيك علمًا بالأسرار.

وسنذكر قصة المعراج من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: لما فرغ رسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الإسراء إلى بيت المقدس قال: فأخذ جبريل بيدي وأتى بي إلى ناحية الصخرة ثم نادى: يا إسماعيل دَلِّ المعراج فدَلَّاهُ، فإذا له مائة درجة ما رأيتُ شيئًا أحسن منه، فصعد الثانية فإذا بملائكة ألوانهم بيض وثيابهم بيض، ثم صعد الثالثة فإذا بملائكة ثيابهم خضر وألوانهم خضر، وفي الرابعة مَلَك معه عمود وحوله ملائكة تبرق أجسادهم ووجوههم كما تبرق المرآة المجلية، وفي الخامسة فإذا بملائكة مثل الجن والإنس ليس لهم كلام إلا لا إله إلا اللَّه، وفي السادسة مَلَك عظيم على كرسي من ذهب وحوله ملائكة شاخصة أبصارهم، ليس لهم كلام إلا ما شاء اللَّه، وفي السابعة نور يكاد يخطف بصري من نور ملائكة استقبلوني بالتعظيم، وفي الثامنة فإذا فيها ملائكة وجوههم من نور وبأيديهم أعلام النور، فلما رأوني قالوا: يا جبريل مَنْ هذا؟، قال: مُحمَّد

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نبي الرحمة، فسلَّموا عليَّ ورحَّبوا بي، وفي التاسعة رأيتُ ملائكة قصرت عن صفتهم، وفي العاشرة ملائكة لا يعصون اللَّه، لولا أن اللَّه ثبَّت بصري لذهب من نورهم، فاستقبلوني بالتعظيم والترحيب[٥٩].

فلم أزل أرقى من درجة إلى درجة، فسمعتُ الملائكة في السماء يسبِّحون ويهلِّلون ويقدِّسون الرب حتى قرع جبريل الباب فقيل: مَن هذا؟، قال: جبريل، قالوا، ومَنْ معك؟، قال: مُحَمَّد نبي الرحمة، قالوا: أَوَ قَدْ بُعِث إليه؟، قال: نعم، قالوا: مرحبًا بكم، ثم استفتحوا.

فصعد إلى السماء الدنيا فلم يبق ملك إلا استقبلني ورحَّب بي، فإذا رجل قاعد عن يمينه أَسْوِدَة [وعن يساره]، إذا رأى يمينه ضحك وإذا نظر عن يساره بكى، فقال: مرحبًا بالنبي الصالح والابن الصالح، قلت لجبريل: من هذا؟، قال: آدم، وهذه الأَسْوِدة عن يمينه ويساره نَسَم بَنِيهِ، فأهل اليمين هم أهل الجنة، والأَسْوِدة التي عن يساره أهل النار.

ثم مرَّرتُ بخلق أخرى عجيب من العجب، فسرنا فأتينا السَّمَاء الثانية، فقرع جبريل الباب فأقبل ملك في ألف مركب من الملائكة، وسمعتُ حجة أعظم من حجة سماء الدنيا، فقال: يا جبريل مَن هذا؟، قال: مُحَمَّد نبي الرحمة، ففُتِح بابًا من أبوابها فإذا ملائكة لهم زَجَلٌ بالتسبيح والتهليل ورحَّبوا بي، فإذا بيحيى وعيسى وهما أبناء الخالة، قال: هذا يحيى

(٥٩) ذكره الصفوري في "نزهة المجالس ومنتخب النفائس".

وعيسى فسَلِّمْ عليهما فسَلَّمتُ فردَّا، وقالا: مرحبًا بالنبي الصالح والأخ الصالح.

ثم إلى السماء الثالثة فسمعتُ أصواتًا أشدّ من الصواعق، فقرع جبريل بابها، فقالوا: يا جبريل مَن هذا؟، قال: مُحمَّد نبي الرحمة، فرحَّبوا وفتحوا فإذا بيوسف، قال: هذا يوسف فسلِّم عليه فسلَّمتُ عليه، فردَّ فقال: مرحبًا بالنبي الصالح والأخ الصالح.

ثم صعدنا في الهواء حتى أتينا إلى السماء الرابعة فاستفتح جبريل، قيل: مَن هذا؟، قال: جبريل، قيل: ومَن معك؟، قال: مُحمَّد، قيل: أَوَ قَدْ أُرسِل إليه؟، قال: نعم، قيل: مرحبًا به فجاء ففتح، فلما خلصا فإذا بهارون، قال: هذا هارون فسَلِّم عليه فسلَّمتُ عليه، فردَّ وقال: مرحبًا بالنبي الصالح والأخ الصالح.

ثم صعد بي حتى أتينا السادسة فاستفتح قيل: مَن هذا؟، قال: جبريل، قيل: ومَنْ معك؟، قال: مُحمَّد، قيل: أَوَ قَدْ أُرسِل إليه؟، قال: نعم، قال: مرحبًا به جاء ففتح، فإذا بموسى قال: هذا موسى فسَلِّم عليه فسَلَّمتُ عليه، فردَّ فقال: مرحبًا بالنبي الصالح والأخ الصالح. فلما تجاوزت بكى، قيل: ما يبكيك؟، قال: أبكي لأن غلامًا بُعِث بعدي يدخل من أُمَّتِهِ الجنة أكثر ما يدخلها من أُمَّتِي.

ثم صعد إلى السماء السابعة فاستفتح قيل: مَن هذا؟، قال: جبريل، قيل: ومَن معك؟، قال: مُحمَّد، قيل: أوقد أُرسل إليه؟، قال: نعم، قال:

مرحبًا به جاء ففتح، فإذا بإبراهيم قال: هذا أبوك إبراهيم فسَلِّم عليه فسلَّمتُ عليه فردَّ، وقال: مرحبًا بالابن الصالح والنبي الصالح، وهو مسند ظهره إلى البيت المعمور، والذي يدخله كل يوم سبعون ألف ملَك، ثم إنهم لا يعودون إليه.

قال: ثم رُفِعْتُ إلى سدرة المنتهى فإذا نَبْقُهَا مِثْلُ قِلَالِ هَجَرَ وورقها كما آذان الفيل، فلما غشيها من أمر اللَّه عَزَّ وَجَلَّ تغيَّرت فما أحدًا من خلق اللَّه يستطيع أن ينعتها من حسنها.

وعن علي بن أبي طالب كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ قال: قال رسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: فلما كان ليلة الإسراء [أتاني جبريل] وكان السفير بي إلى ربي إلى أن انتهى إلى مقام ثم وقف عنده، فقلتُ: يا جبريل في مثل هذا يترك الخليل خليله؟، [فقال]: إن تجاوزت احترقت بالنور، ثم زَجَّ بي في النور فخرق بي إلى سبعين حجابًا، ليس فيها حجاب يشبه حجابًا، وانقطع عني حس كل مَلَك وإنس، فلحقني عند ذلك استيحاش، فعند ذلك ناداني مناد بلغة أبي بكر، فبينما أنا أتفكّر في ذلك وأقول: هل سبقني أبو بكر؟ فإذا [النداء] من العلي الأعلى: ادْنُ يا أحمد ادْنُ يا مُحمَّد ليدنُ الحبيب، فأدناني ربي حتى كنتُ كما قال: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾[النجم: ٨-٩]، وسألني ربي فلم استطع أن أجيبه، فوضع يده بين كتفَيْ فوجدتُ بردها فأورثني علم الأولين والآخرين[٦٠].

---

(٦٠) ذكره القسطلاني في "المواهب اللدنية" والحلبي في "السيرة الحلبية".

وروى ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أن النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رأى ربه بالقلب[٦١] اهـ.

فلما ناجى ربه وبَدَّل حزنه سرورًا بما نطقته كرامة الإسراء من لطائف التكريم في حضرة التقريب بالمُكالمة والمُشاهدة والآية الكبرى.

وفُرِضَ عَلَيْهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خمسين صلاة [ونزَلَ] صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ راجعًا حتى وقف على مُوسَى عَلَيْهِمَا السَّلَامُ. كَمَا فِي حَدِيث مُسْلِم عَنْ أَنَسٍ: «فَنَزَلْتُ إِلَى مُوسَى فَقَالَ: مَا فَرَضَ رَبُّكَ عَلَى أُمَّتِكَ؟، قُلْتُ: خَمْسِينَ صَلَاةً، قَالَ: ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ، فَإِنَّ أُمَّتَكَ لَا تُطِيقُ ذَلِكَ، قَالَ: فَرَجَعْتُ إِلَى رَبِّي، فَحَطَّ عَنِّي خَمْسًا، فَرَجَعْتُ إِلَى مُوسَى فَقُلْتُ: حَطَّ عَنِّي خَمْسًا، فَقَالَ: إِنَّ أُمَّتَكَ لَا تُطِيقُ ذَلِكَ، فَارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ، فَلَمْ أَزَلْ أَرْجِعُ بَيْنَ رَبِّي تَعَالَى وَبَيْنَ مُوسَى حَتَّى قَالَ: يَا مُحَمَّدُ إِنَّهُنَّ خَمْسُ صَلَوَاتٍ كُلَّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ لِكُلِّ صَلَاةٍ عَشْرٌ، فَذَلِكَ خَمْسُونَ صَلَاةً».

---

(٦١) أخرجه أحمد والترمذي والبزَّار والنسائي وابن خزيمة والطبراني والدارقطني والبيهقي.

لَمَّا أُسْرِي بِالنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى أَصْبَحَ يُحَدِّثُ النَّاسَ بِذَلِكَ فَارْتَدَّ جَمَاعَةٌ كَانُوا قَدْ آمَنُوا، وَسَعَى رَجُلٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ إِلَى أَبِي بَكْرٍ فَقَالَ: هَلْ لَكَ إِلَى صَاحِبِكَ؟ يَزْعُمُ أَنَّهُ أُسْرِيَ بِهِ اللَّيْلَةَ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ وَجَاء قَبْل أَنْ يُصْبِحَ؟، فَقَالَ: نَعَمْ، إِنِّي لَأُصَدِّقُهُ فِيمَا هُوَ أَبْعَدُ مِنْ ذَلِكَ، [أُصَدِّقُهُ] بِخَبَرِ السَّمَاءِ فِي غَدْوَةٍ أَوْ رَوْحَةٍ، فَلِذَلِكَ سُمِّيَ الصِّدِّيقَ[٦٢].

(اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ عَلَى الذَّاتِ المُحَمَّدِيَّة وَاغْفِر لَنَا مَا يَكُونُ وَمَا قَدْ كَانْ).

(٦٢) أخرجه الحاكم وابن عساكر.

ثُمَّ لَمْ يَزَلْ صَابِرًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى الخَبَائِثِ الصَّادِرَةِ لَهُ مِنَ الفِئَةِ الكُفْرِيَّة ۞ وَيَدْعُو لَهُمْ مِنْ حُسْنِ خُلُقِهِ بِالهُدَى وَالهَدَيَان ۞ فَهَدَى اللَّهُ مَنْ هَدَى بِعِنَايَتِهِ وَأَمَرَهُ لِيُتِمَّ لَهُ بِالهِجْرَةِ النَّبَوِيَّة ۞ فَخَرَجَ هُوَ وَالصِّدِّيقُ وَتَخَبَّيَا فِي غَارِ ثَوْرٍ وَطَلَبَ الكُفَّارُ لَهُمَا يُقْتَلَان ۞ فَأَتَوا إِلَى الغَارِ وَقَدْ أَمَرَ اللَّهُ الحَمَامَ وَالعَنْكَبُوتَ تَنْسِجُ عَلَى فَمِ تِلْكَ المَغَارَةِ المَحْصُونِيَّة ۞ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ هَؤُلَاءِ هُمْ فَقَالَ مَنْ مَلَأَ اللَّهُ قَلْبَهُ بِالسَّكِينَةِ وَالاِطْمِئْنَان ۞ يَا أَبَا بَكْرٍ مَا بَالُكَ بِاثْنَيْنِ اللَّهُ ثَالِثُهُمَا فَأَنْزَلَ اللهُ عَلَيْهِمَا سَكِينَتَهُ النَّصْرِيَّة ۞ وَمَضَوْا إِلَى المَدِينَةِ فَأَدْرَكَهُمْ فِي الطَّرِيقِ سُرَاقَةُ فَسَاخَتْ قَوَائِمُ فَرَسِهِ فَنَادَى الأَمَان ۞ فَحَلَّهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَرَجَعَ وَرَدَّ الكُفَّارَ عَنْهُ وَدَخَلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى الدِّيَارِ الحَرَمِيَّة ۞ وَنَزَلَ عِنْدَ أَخْوَالِهِ فِي دَارِ بَنِي النَّجَّارِ أَهْلِ الرُّسْخَان ۞ وَبَنَى المَسْجِدَ وَجَهَّزَ الجَيْشَ هُوَ وَالدَّائِرَةُ الأَصْحَابِيَّة ۞ وَأَقَامَ الدِّينَ حَتَّى أَتَاهُ اليَقِينُ فَوَافَى مَوْلَاهُ بِإِحْسَان ۞ وَاسْتَأْذَنَهُ مَلَكُ المَوْتِ وَلَمْ يَسْتَأْذِنْ أَحَداً قَبْلَهُ مِنَ الأَنْبِيَآءِ القَبْلِيَّة ۞ فَأَذِنَ لَهُ وَأَعْظَمُ المَصَائِبِ عَلَيْنَا وَفَاتُهُ فَالحُكْمُ لِلمَنَّان ۞ وَدُفِنَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي حُجْرَةِ عَائِشَةَ زَوْجَتِهِ الَّتِي نَزَلَتْ فِيهَا الْآيَاتُ التَّبْرِيئِيَّة ۞ وَعِنْدَ رِجْلَيْهِ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ وَعُمَرُ الفَارُوقُ مَدْفُونَان ۞ وَصَلَّتْ عَلَيْهِ المَلَائِكَةُ وَعَزَّتْ أَهْلَهُ مَعَ الخَضْرِ ذِي العُلُومِ اللَّدُنِّيَّة ۞ ثُمَّ صَلَّى عَلَيْهِ الرِّجَالُ بِوِصَايَتِه وَالنِّسَاءُ وَالصِّبْيَان ۞ وَعَمَّتْ مِلَّتُهُ فِي جَمِيعِ الأَرْضِ القُرْبِيَّة وَالبُعْدِيَّة ۞ وَلَمْ يُحْرَمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَبَرَكَتِهِ شَيْءٌ مِنَ الأَكْوَان ۞

(ثُـمَّ) شـرعَ المُصـنِّف رَضِـيَ اللَّهُ عَنْـهُ وأمـدَّنا بمـدده الزاهـر فـي البـاب العاشر: ثم بعد الوحي والإسراء أُمِر بصَدْعِ التَّبْلِيغ: (لَـمْ يَـزَلْ صَـابِرًا) أَيْ: ثابتًا (عَلَـى) ما ناله من قومه من الشتم والاستهزاء ورميهم له بِـ(الخَبَائِـثِ الصَّادِرَةِ) أَيْ: الناشئة من (الفِئَـةِ) أَيْ: الجماعة (الكُفْرِيَّـة) من قولهم ساحر أو مجنون، ومع ذلك يصفح عنهم.

(وَيَدْعُو لَهُمْ) أَيْ: يطلب لهم من اللَّه الإيمان، وذلك (مِـنْ) كمال (حُسْـنِ خُلُقِهِ) ورعايته لهم (بِالهُـدَى) أَيْ: إلى الهُدَى (وَالهَـدَيَان) أَيْ: الدعاية إلى اللَّه، (فَهَـدَى اللَّـهُ) إليه (مَـنْ هَـدَى بِعِنَايَتِـهِ) للإيمان كأبي بكر وغيره من الصحابة، وضلَّ مَنْ ضلَّ اللَّه كأبي جهل وغيره من المشركين.

وذكر أهل السِّيَر: أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يطوف على الناس في منازلهم ويقول لهم: يا أيها الناس إن اللَّه يأمركم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئًا، ووراءه رجل يقول: يا أيها الناس إن هذا يأمركم أن تتركوا دين آبائكم[٦٣].

وقد أقحمهم بالبراهين القاطعة والحُجج الواضحة فما بقي منهم إلا الجحود والعناد، ثم مشوا في أذيته فمنهم مَنْ يحثو التراب على رأسه وجُعِل الدم على بابه، ومع ذلك يدعوهم إلى الإيمان لأنه حريصٌ على إيمانهم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

---

(٦٣) أخرجه أحمد والطبراني والحاكم وأبو نُعَيْم

فلما اشتد البلاء والأذى على مَنْ كان مؤمنًا مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هاجَرَ بعض الصحابة إلى الحبشة.

(وَ) بعد ذلك (أَمَرَهُ) الحق سبحانه (لِيُتِمَّ لَهُ) صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (بِالهِجْرَةِ) أَيْ: دار الهجرة (النَّبَوِيَّة) وهي المدينة المُنوَّرة. وحقيقة الهجرة: الخروج من ديار الكفار إلى ديار الإسلام.

وكان أوَّل مَنْ هاجر من مَكَّة إلى المدينة أبو سلمة بن عبد الأسد، قبل بيعة العقبة بسنة بعد ما قدم من الحبشة إلى مكة وأذوه أهلها، وبلغها إسلام من أسلم من الأنصار فخرج إليهم، ثم عامر بن ربيعة وامرأته ليلى، ثم عبد اللَّه بن جحش ثم المسلمون أرسالاً، ثم عمر بن الخطاب وأخوه زيد، وعياش بن أبي ربيعة راكبًا، فقدموا المدينة فنزلوا في العوالي، ثم خرج عثمان بن عفان حتى لم يبق مع النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلا علِيّ وأبو بكر. اهـ من "المواهب".

(فخرج) أَيْ: خرج من تلك الأرض المَكِيَّة التي هي مولده ومرباه ووطن والديه وآبائه، وأحبّ أرض اللَّه إلى اللَّه وإلى رسوله، كما صحَّ عنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَلَوْلَا أَنِّي أُخْرِجْتُ مِنْكِ مَا خَرَجْتُ»[٦٤].

وذلك بعد العقبة الثالثة بعد ثلاثة أشهر يوم الاثنين، وخلَفَ عليًّا يؤدي ما عنده من الودائع، وجاء إلى أبي بكر في وقت الظهر وقال: أُذِنَ

---

(٦٤) أخرجه مسلم وأحمد وابن ماجه والترمذي والنسائي والطبراني والحاكم والبيهقي.

لِي فِي الْخُرُوجِ، قَالَ أَبُو بَكْرٍ: الصُّحْبَةَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: نَعَمْ، خُذْ إِحْدَى رَاحِلَتَيَّ هَاتَيْنِ، فَقَالَ: بِالثَّمَنِ(٦٥). فخرجا ليلاً إلى الغار.

(هُوَ) صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (وَ) أبو بكر (الصِّدِّيقُ) ابن أبي قحافة، (وَتَخَبَّيَا) أَيْ: اختفيا (فِي غَارِ) أَيْ: ثقب جبل (ثَوْرٍ وَطَلَبَ) أَيْ: قصد (الكُفَّارُ) أهل الشرك (لَهُمَا) للنَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأبو بكر (يُقْتَلَان) لِيَقْتُلَانَهُمْ.

(فَأَتَوْا) أَيْ: جاءوا (إِلَى الغَارِ وَقَدْ أَمَرَ اللَّهُ) بعد دخول النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأبي بكر وقبل مجيء الكفار (الحَمَامَ) تَبِيض (وَالعَنْكَبُوتَ تَنْسِجُ) حبالها (عَلَى فَمِ) أَيْ: على (تِلْكَ المَغَارَةِ المَحْصُونِيَّة) أَيْ: المحفوظة.

وخرج الكفار في أثرهما وقدموا إلى المغارة فوجدوا بيض الحمامة ونسيج العنكبوت. وفي روايةٍ: الحمامتين باضتا في أسفل النَّقْب ونسج العنكبوت على أعلاه.

قيل: أن فتيان قريش من كل بطن خرجوا بسلاحهم، وجعل بعضهم ينظر في الغار فلم يرَ إلا حمامتَيْن. (فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ) رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لرسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (هَؤُلَاءِ هُمْ) أدركونا، (فَقَالَ) صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُثَبِّتًا لأبي بكر: أتدري (مَنْ مَلَأَ اللَّهُ قَلْبَهُ) بالإيمان و(بِالسَّكِينَةِ) هي سكون القلب مع اللَّه دائمًا، (وَالِاطْمِئْنَان) الثبات عند المُهِمّات.

---

(٦٥) أخرج البخاري وأحمد وعبد الرزَّاق وابن سعد وأبو يعلى وابن حبان وأبو نعيم والبيهقي.

(يَا أَبَا بَكْرٍ مَا بَالُكَ) أَيْ: أَمَا تعلم (بِاثْنَيْنِ) نَبِيًّا وصِدِّيقًا، (اللَّهُ ثَالِثُهُمَا) أَيْ: معهم بحفظه ورعايته لهم، (فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا) أَيْ: أنزل فيهما (سَكِينَتَهُ النَّصْرِيَّة) وهذا مراعاة لقوله تعالى: ﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ﴾[التوبة: ٤٠].

ورُوِيَ: أن أبا بكر لما رأى القافة اشتد حزنه فقال: إن قُتِلتُ أنا فإنما أنا رجل واحد، وإن قُتِلتَ أنت هلكت الأُمَّة، فقالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ يعنى بالمعونة والنصر، ﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ﴾(٦٦).

قال ابن حجر ومعنى الآية في قوله تعالى: ﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ﴾ أَيْ: لأبي بكر لأنه الذي انزعج وأيَّدهُ، أَيْ: رسوله بجنوده وهي أُمَّته أو ملائكته يضربون وجوه الكفار عنه.

والمشهور أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مكث في الغار ثلاثة ليال، وكان عبد اللَّه بن أبي بكر يأتيهما ليلاً بفرش، فيصبح بمكة كبائت فيها، وكان عامر بن فُهَيْرة مولى أبي بكر يأتيهما بطعام كل ليلة.

ثم استأجر عبد اللَّه بن أريقط ليدلهما على الطريق. (وَمَضَوْا) وسافروا (إِلَى المَدِينَةِ)، وأرسلت قريش في كل قبيلة أن مَنْ قتلهما أو أسرهما له دِيَتَان.

---

(٦٦) ذكره القسطلاني في "المواهب اللدنية".

ولمَّا وصلَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قرب رابغ (فَأَدْرَكَهُمْ) أَيْ: حضرهم (فِي الطَّرِيقِ سُرَاقَةُ) بْن مَالِك بْن جُعْشَم الْمُدْلِجِيّ (فَسَاخَتْ) أَيْ: غاصت في الأرض (قَوَائِمُ فَرَسِهِ) إلى الركبتَيْن، (فَنَادَى الأَمَان) أَيْ: طلب الأمان، فقال: الأمان يا مُحمَّد.

(فَحَلَّهُ) أَيْ: فخلَّصهُ (النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) أَيْ: دعى له حتى تخلَّص (فَرَجَعَ) سُراقة (وَرَدَّ الكُفَّارَ عَنْهُ) حين سألوه عنه، وقال: إني اتبعت هذا الطريق ولم أجد شيئًا.

ورُوِيَ عن سراقة قال: جاءنا رسل كفار قريش يجعلون فيهما إن قُتِلا أو أُسِرَا دِيَتَيْن فركبتُ مستخفيًا، فلما دنوتُ منهما عثرت بي فرسي فخررت ثم قمت وركبته، حتى إذا سمعت قراءة النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو لا يلتفت كثيرًا، فبكى أبو بكر وقال: يا رسول اللَّه أُتِينا، ودعا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بدعوات، فساخت قوائم فرسي ونزلت عنها وزجرتها، ولم تكن تخرج يداها فناديتُ: الأمان يا مُحمَّد، فتخلَّص فرسي فقلتُ: أعلم إنكما دعوتما عليَّ فادعوا لي ولكما أن أرد الناس عنكما ولا أضركما. قال: فوقفا لي فركبتُ فرسي وعرضتُ عليهما الزاد، ولم يأخذا مني شيئًا، وقال: اخف عنا، فسألته كتابًا منه فكتبَ [له] في رِقٍّ من أَدِيم أخرجها له يوم حُنَيْن[٦٧].

---

(٦٧) أخرجه البخاري ومسلم والبيهقي.

(وَدَخَلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى الدِّيَارِ الحَرَمِيَّة وَ) لمَّا قدم المدينة (نَزَلَ) صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (عِنْدَ أَخْوَالِهِ) أَيْ: أبي أخوال جده عبد المُطَّلِب (فِي دَارِ) بيوت (بَنِي النَّجَّار) ونزل صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في دار أبي أيوب (أَهْلِ الرُّسْخَان) أَيْ: الإيمان الكامل.

(وَبَنَى المَسْجِدَ) في المدينة (وَجَهَّزَ) أَيْ: حَضَّر (الجَيْشَ) المؤمنين، (هُوَ) صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (وَالدَّائِرَةُ الأَصْحَابِيَّة) أَيْ: أصحابه بأموالهم وأنفسهم في سبيل اللَّه حتى شدّ الإسلام، ([وَأَقَامَ الدِّينَ حَتَّى] أَتَاهُ) عين (اليَقِينَ) كما وعده له بإحسان. ولمَّا وصل النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المدينة نزل في دار أبي أيوب وأقام بها سبعة أشهر. ([فَوَافَى مَوْلَاهُ بِإِحْسَان]).

ذُكِر في "المواهب": أن النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما دخل المدينة كان يصلي حيث أدركته الصلاة، ولما أراد بناء المسجد الشريف قال: يا بني النجار ثامنوني بحائطكم، قالوا: لا نطلب ثمنه إلا لله تعالى، فأبى ذلك صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وابتاعها بعشرة دنانير.

وكان في موضع المسجد نخل وخِرَب ومقابر مشركين، فأمر بنبش القبور فَنُبِشَتْ وبالخرب فَسُوِّيَتْ وبالنخل فَقُطِعَتْ، ثم أمر باتِّخَاذ اللَّبِن فاتُّخِذ، وبنى المسجد وسُقِف بالجريد وجُعِلت أعمدته بخشب النخل، وعمل فيه المسلمون ويعمل النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ معهم وينقل اللَّبِن في ثيابه ويقول:

هَذَا الْحِمَالُ لَا حِمَالَ خَيْبَرْ هَذَا أَبَرُّ رَبَّنَا وَأَطْهَرْ

اللَّهُـمَّ إِنَّ الْأَجْـرَ أَجْـرُ الآخِـرَهْ فَـارْحَمِ الْأَنْصَـارَ وَالْمُهَـاجِرَهْ

وجُعِلَـتْ قبلـة المسـجد للقُـدْس وجُعِـل لـه ثلاثـة أبـواب: بـابٌ فـي مؤخره، [وبابٌ يقال له: باب الرحمة، والباب الذي يدخل منه]، مائة ذراع وفي الجانبين كـذلك أو دون ذلـك، وجُعِـل أساسـه قريبًـا مـن ثلاثـة أذرع، ونواحيه بيوتًا، وسقفها بجذع النخل والجريد.

فلما فرَغَ من البناء بنى لعائشة البيت الذي يليه شارعًا إلى المسجد، وجعل سودة في البيت الآخر، ثم تحوَّل صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من دار أبي أيوب إلى مساكنه التي بناها.

(وَاسْتَأْذَنَهُ مَلَكُ المَـوْتِ) عزرائيل المُوكل بقبض الأرواح، أَيْ: استأذن عزرائيل: أَيْ: طلب الإذن من رسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأذن له في قبض روحه، والأرجح (ولَمْ يَسْتَأْذِنْ) ملَك الموت (أَحَدًا مِنَ الأَنْبِيَاءِ القَبْلِيَّـة) السابقة. قال سَيِّدِي عبد اللَّه الميرغنِيّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في "المشكاة": فلمَّا استأذنه ملك الموت فاستمهله -أَيْ: طلب منه المهلة- حتى أتاه جبريل الأمين عَلَيْهِ السَّلَامُ بالبشائر ولأُمَّتِهِ من الحضرة الإلهية، فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: الآن قَرَّتْ عَيْنِي أَلْحِقْنِي بِرَبِّي.

(فَـأَذِنَ لَـهُ) أَيْ: المَلَك بالقبض، فقبض روحه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، (وَأَعْظَـمُ) أَيْ: أشدّ (المَصَـائِبِ) البليات (عَلَيْنَـا وَفَاتُـهُ) صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لفقد ذاته الشريفة وانقطاع الوحي عنَّا.

وفي حديث ابن ماجه: أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال في مرضه: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَيُّمَا أَحَدٍ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أُصِيبَ بِمُصِيبَةٍ فَلْيَتَعَزَّ بِمُصِيبَتِهِ بِي عَنِ الْمُصِيبَةِ الَّتِي تُصِيبُهُ بِغَيْرِي، فَإِنَّ أَحَدًا مِنْ أُمَّتِي لَنْ يُصَابَ بِمُصِيبَةٍ بَعْدِي أَشَدَّ عَلَيْهِ مِنْ مُصِيبَتِي».

قالَ أبو الجَوْزاءِ: كانَ الرَّجلُ مِن أهلِ المدينةِ إذا أصابَتْهُ مصيبةٌ، جاءَ أخوهُ فصافَحَهُ ويقولُ: يا عبدَ اللَّهِ اتَّقِ اللَّه، فإنَّ فِي رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أُسوة حسنة.

وذُكر: لمَّا مات رَسُول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ طاشت العقول، فمنهم من خُبِل، ومنهم من أُقْعِد فلم يستطع القيام، ومنهم من أُخْرِس ولم يستطع الكلام، ومنهم مَنْ أضنى، وكان علِيّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ممَّن أُقْعِد، وكان عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ممَّن خُبِل، وكان عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ممّن أُخْرِس، وكان علِيّ ممّن أُقْعِد [فلم يستطع حراكًا]، وأضنى عبد اللَّه بن أنيس فمات كمدًا. وكان أثبتهم أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يُذَكِّرهم بالآيات والأحاديث الواردة في موته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتى ردّت عقولهم. اهـ من "المواهب". (فَالحُكْمُ لِلمَنَّان).

(وَدُفِنَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي حُجْرَةِ) أَيْ: بيت (عَائِشَةَ زَوْجَتِهِ) أم المؤمنين (الَّتِي نَزَلَتْ فِيهَا الآيَاتُ التَّبْرِيئِيَّة) في سورة برَّأها اللَّه مما رموها بالإفك. (وَعِنْدَ رِجْلَيْهِ) صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ وَعُمَرُ الفَارُوقُ

مَدْفُونَان) وفي بعض الروايات: إن أبا بكر دُفِن خلف النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعمر عند رجلَيْ أبي بكر.

(وَصَلَّتْ عَلَيْهِ المَلَائِكَةُ) المُقَرَّبين (وَعَزَّتْ) الملائكة (أَهْلَهُ) أَيْ: أَهْل بَيْتِهِ يَسْمَعُونَ أَصْوَاتًا وَلَا يَرَوْنَ الشَّخْصَ وَهُوَ يَقُولُ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ، إِنَّ فِيَ اللَّهِ عَزَاءً مِنْ كُلِّ مُصِيبَةٍ وَعِوَضًا مِنْ كُلِّ فَائِتٍ، فَبِاللَّهِ فَثِقُوا وَإِيَّاهُ فَارْجُوا[٦٨]. (مَعَ الخَضْرِ ذِي العُلُومِ اللَّدُنِّيَّة) أبو العَبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقالَ فِي عَزَائِهِ: إِنَّ فِيَ اللَّهِ عَزَاءً مِنْ كُلِّ مُصِيبَةٍ وَخَلَفًا مِنْ كُلِّ هَالِكٍ، فَبِاللَّهِ فَثِقُوا وَإِلَيْهِ فَارْجِعُوا.

(ثُمَّ) بعد ما فرقوا الملائكة (صَلَّى عَلَيْهِ الرِّجَالُ) أفذاذًا، وذلك (بِوِصَايَتِهِ) صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، (وَ) بعدهم (النِّسَاءُ وَالصِّبْيَان).

وروَى الحاكم: عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إِذَا غَسَّلْتُمُونِي وَكَفَّنْتُمُونِي [فَضَعُونِي] عَلَى سَرِيرِي فِي بَيْتِي عَلَى شَفِيرِ قَبْرِي، ثُمَّ اخْرُجُوا عَنِّي سَاعَةً فَإِنَّ أَوَّلَ مَنْ يُصَلِّي عَلَيَّ جِبْرِيلُ ثُمَّ مِيكَائِيلُ ثُمَّ إِسْرَافِيلُ ثُمَّ مَلَكُ الْمَوْتِ مَعَ جُنُودٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، ثُمَّ ادْخُلُوا أَفْوَاجًا أَفْوَاجًا، فَصَلُّوا عَلَيَّ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا.

(وَعَمَّتْ مِلَّتُهُ) أَيْ: شريعته (فِي جَمِيعِ الأَرْضِ) أَيْ: جميع الأقاليم (القُرْبِيَّة وَالبُعْدِيَّة) بل بلغت مشارق الأرض ومغاربها، (وَلَمْ يُحْرَمْ) يُمْنَع (مِنْ رَحْمَتِهِ

(٦٨) أخرجه ابن سعد والطبراني والحاكم والبيهقي.

وَبَرَكَتِهِ شَيْءٌ) أَيْ: أحد (مِنَ الأَكْوَان) كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾.

وَأَمَّا وَصْفُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ حَيْثُ جِهَتِهِ الخَلْقِيَّة ۞ فَهُوَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الحَقِيقَةِ كَان ۞ فَخْماً مُفَخَّماً وَجْهُهُ كَالدَّائِرة القَمَرِيَّة ۞ أَطْوَلَ مِنَ المَرْبُوعِ وَأَقْصَرَ مِنَ المُشَذَّبِ الَّذِي طُولُهُ قَدْ بَان ۞ عَظِيمَ الهَامَةِ أَزْهَرَ اللَّوْنِ وَاسِعَ الجَبِينِ أَزَجَّ الحَوَاجِبِ غَيْرَ مَقْرُونِيَّة ۞ لَا يُجَاوِزُ شَعْرُهُ شَحْمَةَ أُذُنَيْهِ رَجِلَ الشَّعْرَان ۞ بَيْنَ حَاجِبَيْهِ عِرْقٌ يُدِرُّهُ الغَضَبُ أَقْنَى العِرْنِينِ ذَا الحِلْيَةِ الحَلِيَّة ۞ لَهُ نُورٌ يَعلُوهُ يَحسِبُهُ مَنْ لَمْ يَتَأَمَّلهُ أَشَمَّ وَهُوَ خَطْآن ۞ كَثَّ اللِّحْيَةِ سَهْلَ الخَدَّيْنِ الوَرْدِيَّة ۞ كَامِلَ الجَمَالِ فِطْرَةً أَدْعَجَ العَيْنَان ۞ وَاسِعَ الفَمِ يَفْتَتِحُ الكَلَامَ وَيَخْتِمُهُ بِشِدْقَيْهِ العَسَلِيَّة ۞ أَشْنَبَ وَقَدْ صَحَّ أَنَّهُ مُفَلَّجُ الأَسْنَان ۞ لَهُ شَعَرٌ دَقِيقٌ مِنْ صَدْرِهِ إِلَى سُرَّتِهِ يُسَمَّى المَسْرُبَةَ الشَّعْرِيَّة ۞ وَعُنُقُهُ جِيدُ دُمْيَةٍ فِي صَفَاءِ الفِضَّةِ بَيَضَان ۞ مُعْتَدِلَ الخَلْقِ بَادِناً مُتَمَاسِكاً ذَا رَوَائِحَ مِسْكِيَّةٍ طِيبِيَّة ۞ سَوَآءَ البَطْنِ وَالصَّدْرِ مَسِيحَهُ بَعْيِدَ مَا بَيْنَ المَنْكِبَان ۞ ضَخْمَ الكَرَادِيسِ أَيْ رُءُوسِ العِظَامِ المَجْلِيَّة ۞ أَشْعَرَ المَنْكِبَيْنِ وَأَعَالِي الصَّدْرِ وَالذِّرَاعَان ۞ عَارِيَ الثَّدْيَيْنِ مِمَّا سِوَى ذَلِكَ بِتَصْحِيحِ الشَّمَائِلِ التِّرْمِذِيَّة ۞ طَوِيلَ الزَّنْدَيْنِ رَحْبَ الرَّاحَةِ شَثْنَ الكَفَّيْنِ وَالقَدَمَان ۞ سَبْطَ العَصَبِ سَابِلَ الطَّرْفِ ذَا النَّظَرَاتِ الجَمَالِيَّة ۞ يَنْبُو المَاءُ عَنْ كَفَّيْ رِجْلَيْهِ إِذَا ضَحِكَ يَفْتَرُّ عَنْ مِثْلِ حَبِّ الغَمَامِ مُبْدٍ لِذَلِكَ الحُبَّان۞ أَيِ الحُبُوبِ المَحْظِيَّة ۞ نَظَرُهُ إِلَى الأَرْضِ أَطْوَلُ مِنْ نَظَرِهِ إِلَى السَّمَاءِ جُلُّ نَظَرِهِ المُلَاحَظَةُ يَسُوقُ أَصْحَابَهُ رُكْبَاناً وَمِشْيَان ۞ دَائِمَ البِشْرِ يَبْدَأُ مَنْ لَقِيَهُ بِالسَّلَامِ

إِذَا مَشَى كَأَنَّمَا يَنْحَطُّ مِنْ صَبَبٍ مِشْيَةً رُوحَانِيَّة ۞ دَائِمَ الفِكْرِ طَوِيلَ السُّكُوتِ مُتَوَاصِلَ الأَحْزَان ۞

وشرعَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في الباب الحادي عشر: (وَأَمَّا وَصْفُهُ) أَيْ: نعتهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (مِنْ حَيْثُ جِهَتِهِ [الخَلْقِيَّة]) أَيْ: صورته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الظاهرة، وأما في الحقيقة لا يستطيع أن ينعته أحد. (فَهُو صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الحَقِيقَةِ كَان) على غاية الحسن كما قال المُحدِّثون: (فَخْمًا) أَيْ: عظيمًا في نفسه، [وُصِف] جسده بالمهابة والجمال بحيث يملأ عين رائيه.

(مُفَخَّمًا) أَيْ: عظيمًا في صدور الصدور، (وَجْهُهُ) يستنير ويضيء هو (كَالدَّائِرةِ القَمَرِيَّة) أَيْ: دائرة كدائرة القمر، وله ضوء يختطف منه القمر. (أَطْوَلَ مِنَ المَرْبُوعِ) عند إمعان النظر، (وَأَقْصَرَ مِنَ المُشَذَّبِ) اسم مفعول: هو (الَّذِي طُولُهُ قَدْ بَانَ) أَيْ: طولًا بائنًا في نحافة.

(عَظِيمَ الهَامَةِ) أَيْ: الرأس لأنه ممدوح وأهون على الإدلاء، والمُراد بسعتها امتدادها طولًا وعرضًا، وكان (أَزْهَرَ اللَّوْنِ) أَيْ: بياض مُشرب بحمرة، (وَاسِعَ الجَبِينِ) وهو ما اكتنف الجبهة من يمين وشمال.

و(أَزَجَّ الحَوَاجِبِ) أَيْ: مُقوَّس الحواجب مع وفور الشعر ([غَيْرَ مَقْرُونِيَّة]) كادا أن يقترنا ولم يقترنا، (لَا يُجَاوِزُ شَعْرُهُ شَحْمَةَ أُذُنَيْهِ) كفاه من الفرق، (رَجِلَ الشَّعْرَان) بفتح الراء وكسر الجيم: أَيْ: بين الجعودة والسبوطة.

(بَيْنَ حَاجِبَيْهِ عِرْقٌ يُدِرُّهُ) أَيْ: يُظهرهُ (الغَضَبُ) أَيْ: غضب أَيْ: يكون ممتلئًا من الدم ويهيّجهُ الغضب، (أَقْنَى) بقاف ونون: وهو سائل الأنف المرتفع وسطه أَيْ: (العِرْنِين) أَيْ: ما أعلى عظم الأنف، وعرانين الناس أشرافهم، (ذُو الحِلْيَةِ الحَلِيَّة) أَيْ: كأنه إبريق فضة.

(لَهُ نُورٌ) أَيْ: سناء وبهاء (يَعْلُوهُ) أَيْ: ظاهره عليه يحجبه مرارًا، (يَحْسِبُهُ مَنْ لَمْ يَتَأَمَّلهُ) بإمعان النظر المرة بعد المرة (أَشَّمَ) قال المُصنِّف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في "شرح المشكاة": الشمم ارتفاع قصبة الأنف مع استواء أعلاها، يعني له نور يعلوه مستويًا حيث يرى أعلاه مستويًا قبل التأمُّل يظن أنه أشم (وَهُوَ خَطْآن) أَيْ: ليس كذلك.

(كَثَّ اللِّحْيَة) أَيْ: خليطها، (سَهْلَ الخَدَّيْنِ) أَيْ: غير مرتفعة الوجنتين (الوَرْدِيَّة) أَيْ: مستوية الخد مع الوجه، (كَامِلَ الجَمَالِ) أَيْ: الحسن، (فِطْرَةً) أَيْ: بلغ فطرة الجمال وهي غايته. (أَدْعَجَ العَيْنَان) أَيْ: سواد الحدق مع سعة العين.

(وَاسِعَ الفَمِ) سعته تدل على الفصاحة الكاملة، (يَفْتَتِحُ) يبدأ (الكَلَامَ وَيَخْتِمُهُ بِشِدْقَيْهِ العَسَلِيَّة) وذلك لقوة الفصاحة والبلاغة، (أَشْنَبَ) أَيْ: بروق الأسنان والبياض، (وَقَدْ صَحَّ أَنَّهُ) صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (مُفَلَّجَ الأَسْنَان) أَيْ: منفرج الثنايا، (لَهُ شَعَرٌ دَقِيقٌ مِنْ صَدْرِهِ إِلَى سُرَّتِهِ يُسَمَّى المَسْرُبَةَ الشَّعْرِيَّة) وهو ما بين السُّرَّة والصدر.

(وَعُنقُهُ) بضم المهملة وفتح النون أو إسكانها يُذكّر ويُؤنّث، (جِيدُ) أَيْ: مقدم منه أو مقلده، (دُمْيَةٍ) أَيْ: الصورة المنقوشة من نحو رخام أو غيره من كامل الحسن، (فِي صَفَاءِ الفِضَّةِ بَيَضَان) أَيْ: لون عنقه كالفضة في البياض والإشراق.

(مُعْتَدِلَ الخَلْقِ) أَيْ: أعضاؤه الشريفة مُتناسقة غير متنافرة، (بَادِنًا) أَيْ: ضخم البدن وجليل المُشاشة، (مُتَمَاسِكًا) أَيْ: يمسك بعض أجزائه بعضًا من غير استرخاء ولا جرح. (ذَا) أَيْ: صاحب (رَوَائِحَ مِسْكِيَّةٍ طِيبِيَّة) أَيْ: رائحة كالمسك وأحلى ولم يُستعمل الطيب.

(سَوَاءَ البَطْنِ وَالصَّدْرِ أَيْ: بطنه وصدره مستويان (مَسِيحَهُ) مسيح الصدر أَيْ: عريضه، (بَعِيدَ مَا بَيْنَ المَنْكِبَان) المنكب: مجتمع العضد والكتف والمراد ببعدهما أنه عريض أعلى الظهر.

(ضَخْمَ) أَيْ: غليظ (الكَرَادِيسِ أَيْ: رُؤوسِ العِظَامِ المَجْلِيَّة) بالبهاء. (أَشْعَرَ) أَيْ: كثير شعر (المَنْكِبَيْن وَ) في (أَعَالِي الصَّدْرِ وَالذِّرَاعَان) وله في هذه الثلاثة شعر غزير.

(عَارِيَ الثَّدْيَيْنِ) أَيْ: ليس فيها شعر، (مِمَّا سِوَى ذَلِكَ) أَيْ: عار مما سوى ذلك المذكور، (بِتَصْحِيحِ الشَّمَائِلِ التِّرْمِذِيَّة طَوِيلَ الزَّنْدَيْنِ) هو ما انحسر عنه اللحم من الذراع، (رَحْبَ الرَّاحَةِ) أَيْ: واسع الكف، والراحة: بطن الكف، (شَثْنَ) بشين معجمة مفتوحة (الكَفَّيْنِ) الذي في أنامله غلظ بلا قصر ولا خشونة، (وَالقَدَمَان) كذلك.

(سَبْطَ العَصَبِ) أَيْ: هو المُمتد الذي ليس فيه تعقُّد، (سَابِلَ الطَّرْفِ) ممتد الأصابع طولًا معتدلًا بين الإفراط والتفريط، (ذَا النَّظَرَاتِ) اللمحات (الجَمَالِيَّة).

(يَنْبُو المَاءُ عَنْ كَفَّيْ رِجْلَيْهِ) أَيْ: إذا صُبَّ عليهما الماء مَرَّ سريعًا لصفائهما، (إِذَا ضَحِكَ) أَيْ: تبَسَّم (يَفْتَرُّ) برونق أسنانه (عَنْ مِثْلِ حَبِّ) أَيْ: قَطْر (الغَمَامِ) السحاب الرشح، (مُبْدٍ) أَيْ: مُظهِر (لِذَلِكَ الحُبَّان) أَيْ: المحبون له صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (الحُبُوبِ المَحْظِيَّة) أَيْ: أنواره الجمالية.

(نَظَرُهُ إِلَى الأَرْضِ أَطْوَلُ) أكثر (مِنْ نَظَرِهِ إِلَى السَّمَاءِ) لكمال تواضعه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، (جُلُّ) أَيْ: أكثر (نَظَرِهِ المُلَاحَظَةُ) أَيْ: النظر بمؤخر العين وذلك في وقت الخطاب، (يَسُوقُ أَصْحَابَهُ) أمامه سواء كانوا (رُكْبَانًا وَمِشْيَان).

(دَائِمَ البِشْرِ) أَيْ: مُسْتَبْشِرًا (يَبْدَأُ) أَيْ: يبتدئ (مَنْ لَقِيَهُ) ولو صبيًّا (بِالسَّلَامِ) وسواء أكان جليلاً أم لا. (إِذَا مَشَى كَأَنَّمَا يَنْحَطُّ) أَيْ: ينحدر (مِنْ صَبَبٍ) أَيْ: من أعلى إلى أسفل أَيْ: يرفع رجلَيْه بقوَّةٍ ولا يجرهما، وذلك (مِشْيَةً رُوحَانِيَّة) أَيْ: تشريع المشية مع أن مشيه الهوين، وكان يحط قدمَيْهِ حتى كأَنَّ الأرض تُطوى له.

(دَائِمَ) أَيْ: مستديم (الفِكْرِ) في اللَّه عَزَّ وَجَلَّ أَيْ: لا ينفك عنه الفكر، (طَوِيلَ السُّكُوتِ) أَيْ: الصمت عن فضول الكلام إلا في أمرٍ ونهْيٍ

وتعظيم، (مُتوَاصِلَ الأَحْزَانِ) من غير عبوسة. وهذا من وصف هند بن أبي هالة.

(اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ عَلَى الذَّاتِ المُحَمَّدِيَّة وَاغْفِر لَنَا مَا يَكُونُ وَمَا قَدْ كَانْ).

وَأَمَّا أَخْلَاقُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَلَيْسَ يَحْصُرُهَا ضَبْطُ الأَقْلَامِ البَشَرِيَّة ۞ فَلْنَتَبَرَّكْ بِذِكْرِ نَذْرٍ مِنْهَا كَمَا سَطَّرْنَا فِي خَلْقِهِ المُزَان ۞ فَنَقُولُ كَانَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ قَدْ تخَلَّقَ بِالأَخْلَاقِ القُدْسِيَّة ۞ وَأَمَرَ بِالتَّخَلُّقِ بِهَا لِيُنَالَ كَمَالُ الفَوْزَان ۞ وَنَقُولُ كَانَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمِ رَءُوفًا رَحِيمًا صَاحِبَ شَفَقِيَّة ۞ وَذلِكَ بِسَائِرِ الخَلْقِ وَلَا سِيَّما بِأُمَّتِهِ أَهْلِ عَالِي الجِنَان ۞ وَكَانَ عَلى غَايَةِ العِلْمِ وَالمَعْرِفَةِ وَالكَشْفِ وَالدِّينِ وَالحِلْمِيَّة ۞ وَنِهَايَةِ الصَّبْرِ وَالشُّكْرِ وَالحَيَاءِ فِي كِلَا الوَقْتَان ۞ وَتَحَقَّقَ بِالرَّجَاءِ وَالخَوْفِ وَالزُّهْدِ وَالوَرَعِ فِي الدَّارِ المَفْنِيَّة ۞ بَلْ مَقَامُهُ اقْتَضَى زُهْدَهُ فِي سِوَى الحَنَّان ۞ وَتَحَلَّى بِالتَّوَاضُعِ وَالعَفْوِ وَالجُودِ وَالشَّجَاعَةِ وَالمُرُوءَةِ وَالعِفِيَّة ۞ وَالرِّضَا وَالعَدْلُ فِيهِ وَفِي الغَضَبِ أَعْظَمُ شُهْدَان ۞ وَكَانَ عَلى ذِرْوَةِ الصَّمْتِ وَالتَّأَنِّي وَالوَقَارِ وَحُسْنِ الأَدَبِيَّة ۞ وَالنَّظَافَةِ وَالظَّرَافَةِ اللَّذَيْنِ هُمَا مِنْ أَعْظَمِ النَّفْعَان ۞ وَحُسْنِ المُعَاشَرَةِ والرَّأْفَةِ بِأَهْلِهِ وَالجَمَاعَةِ الصَّحْبِيَّة ۞ وَالكَمَالِ والجَلَالِ وَالجَمَالِ وَالعِرْفَان ۞ وَالتَّوْبَةِ وَالإِنَابَةِ وَالأَوْبَةِ وَالصَّوْمِ وَالصَّلَاةِ النَفْلِيَّة ۞ وَالكَرَمِ وَالوُدِّ وَالبُغْضِ فِي اللهِ وَالحَنَان ۞ عَظِيمَ الصَّفْحِ عَمَّنْ أَسَاءَهُ وَهَا نَحنُ نَخْتِمُ بِالأَدْعِيَةِ المَرْجِيَّة ۞ لِأَنَّهُ لَا يُحْصَرْ مَا لَهُ فَلْنُمْسِكِ البَسْطَ وَنَقْبِضِ العِنَان ۞ وَنَقُولُ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْ سَائِرِ أَصْحَابِهِ خُصُوصاً أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ وَعُثْمَانَ وَعَلِيًّا وَبَاقِي الأَصْحَابِ وَالآلِيَّة ۞ وَلَا سِيَّمَا فَاطِمَةَ وَالحَسَنَ وَالحُسَيْنَ وَسَائِرَ الأَهْلِ وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَان ۞

(وَأَمَّا أَخْلَاقُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) أَيْ: ما تضمَّنته نفسه الشريفة من مكارم الأخلاق ومحامد الصفات (فَلَيْسَ يَحْصُرُهَا) أَيْ: يَعُدّهَا (ضَبْطُ الأَقْلَامِ) والألسنة (البَشَرِيَّة) أَيْ: يعجز الخلائق من إحصاء أخلاقه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ولكن (فَلْنَتَبَرَّكَ بِذِكْرِ نَذْرٍ) أَيْ: بعض (مِنْهَا)، لِأَنَّا عاجزون من إحصائها، والنذر: الشيء القليل، (كَمَا سَطَّرْنَا) أَيْ: وضعنا (فِي خَلْقِهِ المُزَان) أَيْ: ما تضمَّنت صورته الطاهرة، ([فَنَقُولُ] كَانَ) النَّبِيّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ تَخَلَّقَ) أَيْ: اتَّصف (بِالأَخْلَاقِ القُدْسِيَّة) أَيْ: الطاهرة وهي أخلاق الرب تعالى، وقد وصفه اللَّه بها رؤوفٌ رحيمٌ عزيزٌ شاهدٌ وهادِيٌ، كلها صفات اللَّه. (وَأَمَرَ) العباد (بِالتَّخَلُّقِ) الاتِّصَاف (بِهَا) كالإطعام والرأفة، (لِيُنَالَ) المأمور إِنْ امتثلَ (كَمَالُ) الصفات ويظفر بعظيم (الفَوْزَان) أَيْ: الوصول إلى اللَّه.

(وَنَقُولُ كَانَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَءُوفًا رَحِيمًا صَاحِبَ شَفَقِيَّة) الرأفة والرحمة والشفقة معناها متقارب وترجع لرأفة القلب وانعطافه، (وَذَلِكَ بِسَائِرِ الخَلْقِ) أَيْ: مخلوقاته تعالى حتى الكُفَّار بعدم الدعاء عليهم بالهلاك وإمهاله لهم.

وذلك ممَّا رواه الشيخان عن عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهَا: «قَالَتْ لَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: هَلْ أَتَى عَلَيْكَ يَوْمٌ كَانَ أَشَدَّ مِنْ يَوْمِ أُحُدٍ؟، قَالَ: لَقَدْ لَقِيتُ مِنْ قَوْمِكِ مَا لَقِيتُ، وَكَانَ أَشَدَّ مَا لَقِيتُ مِنْهُمْ يَوْمَ الْعَقَبَةِ، إِذْ

عَرَضْتُ نَفْسِي عَلَى ابْنِ عَبْدِ يَالِيلَ بْنِ عَبْدِ كُلَالٍ، فَلَمْ يُجِبْنِي إِلَى مَا أَرَدْتُ، فَانْطَلَقْتُ وَأَنَا مَهْمُومٌ عَلَى وَجْهِي، فَلَمْ أَسْتَفِقْ إِلَّا وَأَنَا بِقَرْنِ الثَّعَالِبِ، فَرَفَعْتُ رَأْسِي فَإِذَا أَنَا بِسَحَابَةٍ قَدْ أَظَلَّتْنِي فَنَظَرْتُ فَإِذَا فِيهَا جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَنَادَانِي فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ وَمَا رَدُّوا عَلَيْكَ، وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْكَ مَلَكَ الْجِبَالِ لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيهِمْ، ثُمَّ نَادَانِي مَلَكُ الْجِبَالِ فَسَلَّمَ عَلَيَّ ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ أَنَا مَلِكُ الجِبَالِ قَدْ بَعَثَنِي رَبِّي إِلَيْكَ لِتَأْمُرَنِي مَا شِئْتَ، إِنْ شِئْتَ أَنْ أُطْبِقَ عَلَيْهِمُ الْأَخْشَبَيْنِ؟، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا». وهذه رحمةٌ ولو شاءَ لهلكوا في ساعتهم.

(وَلَا سِيَّمَا بِأُمَّتِهِ) المؤمنين به هم (أَهْلِ عَالِي الجِنَان) وهو رءوف بهم دنيا وأخرى حيث ما زلَّت أقدامهم أدركهم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالنفحات.

(وَكَانَ) صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (عَلَى غَايَةِ العِلْمِ) أَيْ: نهاية العلم الظاهر والباطن، (وَالْمَعْرِفَةِ) بإرشاد أُمَّتِهِ، (وَالكَشْفِ) وهي الإخبار بالمغيّبات حتى أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أخبر أصحابه بما يقع له بعده، كإخباره بقتل عثمان وعلِيّ والزُّبَيْر وعَمَّار رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُم. قالت خديجة: ما مِنْ فتنةٍ إلا وأخبر عنها فوقعت، كما قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

(وَالدِّينِ) أَيْ: الاستقامة، (وَالحِلْمِيَّة) أَيْ: غاية الحلم، (وَنِهَايَةِ الصَّبْرِ) على طاعة اللَّه، وما يقع به من إيذاء الخلق وجهلهم بقدره، (وَالشُّكْرِ) للَّه على كُلِّ حالٍ، (وَالْحَيَاءِ فِي كِلَا الوَقْتَان) راجع الأوصاف الثلاثة، والصبر

في السراء والضراء، والشكر هو الرضا بالقضاء في الرخاء والشدة. وفي حديث الشيخان: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَشَدَّ حَيَاءً مِنَ الْعَذْرَاءِ فِي خِدْرِهَا».

(وَتَحَقَّقَ بِالرَّجَاءِ) ما وعده الله له من النعيم المُقيم، (وَالخَوْفِ) أَيْ: خوف جلال الله وعظمته ومهابته، (وَالزُّهْدِ) أَيْ: مما سوى الله، (وَالوَرَعِ فِي الدَّارِ المَفْنِيَّة) أَيْ: الدنيا، (بَلْ مَقَامُهُ) العالي (اقْتَضَى) أَيْ: يفهم منه زهده (فِي سِوَى الحَنَّان) من حور وقصور ووِلْدَان، ولم يرغب فيها بل وجه الله.

(وَتَحَلَّى) أَيْ: اتَّصف (بِالتَّوَاضُعِ) لمعرفته بكمال ربه، (وَالْعَفْوِ) عمَّن أساء إليه، (والجُودِ) أَيْ: كثرة العطاء، وقد أعطى رجلاً واحدًا غنمًا ملء ما بين جبلَيْن، (وَالشَّجَاعَةِ) هي ثبات القلب عند ملاقاة العدو، كما قال الإمام عليّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لَقَدْ رَأَيْتنَا يَوْمَ بَدْرٍ وَنَحْنُ نَلُوذُ بِالمُصْطَفَى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَهُوَ أَقْرَبُنَا إِلَى الْعَدُوِّ»[٦٩].

(وَالمُرُوَة) هي الهِمَّة العالية، (وَالعِفِيَّة) وهي التجنُّب عن كل ما لا يليق، (وَالرِّضَا) بالعدل، (وَالعَدْل) هو إعطاء كل أحد حقه وحرمته، (فِيهِ) أَيْ: في الرضا، (وَفِي الغَضَبِ) هو صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يحكم بالقسط ولو في حالة غضبه، (أَعْظَمُ شُهْدَان) أَيْ: أعظم مقام.

---

(٦٩) أخرجه أحمد والنسائي والحاكم وأبو يعلى وابن عساكر والبيهقي.

(وَكَانَ) صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (عَلَى ذِرْوَةِ) أَيْ: أعلى (الصَّمْتِ) المحمود ولا يتكلَّم إلا لحاجة لنفسه ولغيره، وقد عصمه الله أن ينطق بالهوى ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾[النجم: ٤].

(وَ) حُسن (التَّأَنِّي) أَيْ: حُسن النظر في الأمور، (وَالوَقَار) أَيْ: السكينة، (وَحُسْنِ الأَدَبِيَّة) كما قال في الحديث: «أَدَّبَنِي رَبِّي فَأَحْسَنَ تَأْدِيبِي»[٧٠].

(وَالنَّظَافَة) الظاهرة والباطنة، (وَالظَّرَافَة) عن كل رغب، (اللَّذَيْنِ هُمَا مِنْ أَعْظَمِ النَّفْعَان)، وكان يحب النظافة، (وَحُسْنِ المُعَاشَرَة وَالرَّأْفَة بِأَهْلِهِ) أَيْ: أزواجه، (وَالجَمَاعَةِ الصَّحْبِيَّة)، كما قال أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «خَدَمْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَشْرَ سِنِينَ فَمَا سَبَّنِي سَبَّةً قَطُّ، وَلَا ضَرَبَنِي ضَرْبَةً، وَلَا انْتَهَرَنِي، وَلَا عَبَسَ فِي وَجْهِي، وَلَا أَمَرَنِي بِأَمْرٍ فَتَوَانَيْتُ فِيهِ فَعَاتَبَنِي عَلَيْهِ، فَإِنْ عَاتَبَنِي عَلَيْهِ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِهِ قَالَ: دَعُوهُ [فَلَوْ قُدِّرَ شَيْءٌ كَانَ]»[٧١].

(وَالكَمَال وَالجَلَال وَالجَمَال وَالعِرْفَان) أَيْ: الهيبة والوقار، (وَالتَّوْبَة وَالإِنَابَة وَالأَوْبَة) هي الرجوع إلى الله، (وَالصَّوْم وَالصَّلَاة النَّفْلِيَّة).

(وَالكَرَم وَالوُدّ وَالبُغْض فِي اللَّهِ وَالحَنَان عَظِيم الصَّفْح عَمَّنْ أَسَاءَهُ وَهَا نَحْنُ نَخْتِمُ بِالأَدْعِيَةِ المَرْجِيَّة) أَيْ: إجابتها، (لِأَنَّهُ لَا يُحْصَرُ مَا لَهُ فَلْنُمْسِك البَسْط)

---

(٧٠) أخرجه السمعاني في "أدب الإملاء والاستملاء"، وذكره السخاوي في "المقاصد الحسنة".

(٧١) أخرجه مسلم والبخاري وأحمد وعبد الرزَّاق وأبو نعيم وابن عساكر.

أَيْ: الاتِّساع، (وَنَقْبِض العِنَان) هو لجام الدابة: استعارة للكف على بسط العبارات ونقبض.

(وَنَقُولُ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْ سَائِرِ أَصْحَابِهِ خُصُوصًا أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ وَعُثْمَانَ وَعَلِيًّا وَبَاقِي الأَصْحَابِ وَالآلِيَّة) هم الآل، (وَلا سِيَّمَا فَاطِمَةَ وَالحَسَنَ وَالحُسَيْنَ وَسَائِرَ الأَهْلِ وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَان).

(اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ عَلَى الذَّاتِ المُحَمَّدِيَّة وَاغْفِر لَنَا مَا يَكُونُ وَمَا قَدْ كَانْ).

ثُـمَّ ارْفَعُـوا أَيْـدِيَكُمْ يَـا مَعْشَــرَ الحَاضِـرِينَ وَالسَّـامِعِينَ إِلَـى الَّتِـي هِـيَ قِبْلَـةُ الدَّعَوَاتِ العَلِيَّة ۞ فَإِنَّ الدُّعَاءَ مُسْتَجَابٌ عِنْدَ هذَا المَكَان ۞ اللَّهُـمَّ لَـكَ الحَمْـدُ كَمَا يَلِيقُ بِكَ وَكَذَا الشُكْرُ يَا مَنْ لَكَ الصِّفَاتُ السَّنِيَّة ۞ نَسْـأَلُكَ اللَّهُـمَّ بِـذَاتِكَ وَصِفَاتِكَ وَأَسْمَائِكَ الحِسَـان ۞ أَنْ تُصَـلِّي وتُسَـلِّمَ عَلـى سَـيِّدِنَا وَمَوْلَانَـا مُحَمَّـدٍ بِقَدْرِ عَظَمَتِكَ الذَّاتِيَّة ۞ وَآلِهِ وَصَحْبِه وَسَائِرِ الخِلَّان ۞ وَنَسْأَلُكَ اللَّهُمَّ بِاسْـمِكَ العِظَـيمِ الأَعْظَـمِ وَرِضْـوَانِكَ الأَكْبَـرِ ذِي الأَنْـوَارِ السَّـطْوَانِيَّة ۞ وَنَسْـأَلُكَ اللَّهُـمَّ بِاسْمِكَ الطَّاهِرِ الطَّيِّبِ المُبَارَكِ يَا حَنَّان ۞ الَّذِي إِذَا دُعِيتَ بِهِ أَجَبْتَ وَإِذَا سُئِلْتَ بِهِ أَعْطَيْتَ أَوْفَرَ عَطِيَّة ۞ وَإِذَا اسْتُرْحِمْتَ بِهِ رَحِمْتَ وَأَنْتَ أَهْلُ الرَّحْمَةِ يَا رَحْمَن ۞ وَإِذَا اسْتُفْرِجْتَ بِهِ فَرَّجْتَ أَنْ تُفَرِّجَ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيهِ مِنَ الأَضْـيَاقِ الكَدَرِيَّـة ۞ وَأَنْ تَأْخُذَ بِيَدِ كُلٍّ مِنَّا إِلَى مَقْصِدِه يَا وَاسِعَ الوُهْبَان ۞ وَأَنْ تُهَيِّئَ لَنَا مِنَ الأَسْبَابِ مَا تُخرِجُنَا بِهِ مِنْ هَذِهِ الأَحْوَالِ الرَّدِيَّة ۞ وَأَنْ تَنْقُلَنَا إِلَى حَضْـرَةِ الجُودِ وَالوُسْعَان ۞ وَأَنْ تُدْخِلَنَا فِي شَـفَاعَةِ نَبِيِّـكَ سَـيِّدِنَا وَمَوْلَانَـا مُحَمَّـدٍ صَـلَّى اللـهُ عَلَيْـهِ وَسَـلَّمَ العُمُومِيَّـةِ وَالخُصُوصِـيَّة ۞ وَأَنْ تَرْزُقَنَـا جِـوَارَهُ فِـي أَعْلَـى الجِنَـان ۞ وَأَنْ تُمَتِّعَنَـا بِأَسْـمَاعِنَا وَأَبْصَـارِنَا وَالقُـوَّةِ البَدِيعِيَّـة ۞ وَأَنْ تَكْفِيَنَـا شَـرَّ البَـرَصِ وَالجُـذَامِ وَالأَمْرَاضِ وَالجُنَان ۞ وَنَعُوذُ بِكَ اللَّهُمَّ مِنْ كُلِّ آفَةٍ وَمِحْنَةٍ وَعَاهَـةٍ وَزَلْزَلَـةٍ وَشِـدَّةٍ وَعَصَـبِيَّة ۞ وَذِلَّـةٍ وَغَلَبَـةٍ وَقِلَّـةٍ وَجُـوعٍ وَعَطَـشٍ وَمَكْـرٍ وَأَنْ نُهَـان ۞ وَفَقْـرٍ وَفَاقَـةٍ وَحَاجَةٍ إِلَى مَخْلُوقٍ وَضِيقٍ وَوَبَاءٍ وَبَـلَاءٍ وَغَـرَقٍ وَحَـرَقٍ وَفِتْنَـةٍ فِـي الـدِّينِ وَالـدُّنْيَا الحَقِيرِيَّة ۞ وَحَرٍّ وَبَرْدٍ وَسَرْقٍ وَنَهْبٍ وَغَيٍّ وَضَلَالَةٍ وَتُهْمَةٍ وَزَلَلٍ وَطُغْيَان ۞ وَهَمٍّ

وَغَمٍّ وَخَطَأٍ وَمَسْخٍ وَقَذْفٍ وَخَسْفٍ وَعِلَّةٍ وَهَامَّةٍ وَفَضِيحَةٍ صَوْلِيَّة ۞ وَهَلَكَةٍ وَخَلَّةٍ وَعِقَابٍ وَعَذَابٍ وَمَعْصِيَةٍ وَقَبِيحَةٍ فِي الدَّارَان ۞ وَنَعُوذُ بِكَ اللَّهُمَّ مِنَ الِاسْتِدْرَاجِ وَالأَخْذِ وَالجَوْرِ وَالظُّلْمِ وَالسِّحْرِ وَالحَسَدِ والغَدْرِ وَالكَيْدِيَّة ۞ وَالعَدَاوَةِ وَالقَدْحِ وَالحِيَلِ وَالشَّمَاتَةِ وَالكَشْحِ وَالإِطْعَان ۞ وَنَسأَلُكَ اللَّهُمَّ المَغْفِرَةَ وَالهِدَايَةَ وَالخَشْيَةَ وَالعِنَايَةَ وَالرِّعَايَةَ وَاللُّطْفِيَّة ۞ وَالوَرَعَ وَالزُّهْدَ وَالتَّوَكُّلَ وَالإِقْبَالَ وَاللُّطْفَان ۞ وَالكَمَالَ وَالجَلَالَ وَالجَمَالَ وَالِاسْتِقَامَةَ عَلَى الطَّرِيقَةِ الطَّاهِرَةِ المُحَمَّدِيَّة ۞ وَاقْضِ اللَّهُمَّ لِكُلٍّ مِنَّا مَا فِي نَفْسِه مِنَ الحَاجَاتِ يَا وَاهِبَ المَقْصُودِ يَا خَيْرَ مَنْ أَعْطَى السُّؤْلَان ۞ اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ وَنَتَوَجَّهُ إِلَيْكَ بِنَبِيِّكَ سَيِّدِنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّدٍ نَبِيِّ الرَّحْمَةِ الرَّحْمَانِيَّة ۞ يَا سَيِّدَنَا مُحَمَّدُ يا أَحْمَدُ يَا أَبَا القَاسِمِ يَا رَسُولَ اللهِ -ثَلَاثًا- إِنَّا تَوَجَّهْنَا بِكَ إِلَى رَبِّنَا فِي حَوَائِجِنَا جَمِيعِهَا لِتُقْضَى ۞ اللَّهُمَّ شَفِّعْهُ فِينَا بِجَاهِهِ عِنْدَكَ يَا سُلْطَان -ثَلَاثًا- ۞ وَنَسْأَلُكَ اللَّهُمَّ السِّترَ وَالصِّيَانَةَ وَالسِّرَّ وَالصَّلَاحَ وَالمُكَاشَفَةَ وَالبَرَكَةَ وَالبِرَّ وَالمَغْفِرَةَ فِي الأُولَى وَالأُخْرَوِيَّة ۞ وَلا تَفْضَحْنَا اللَّهُمَّ بَيْنَ عِبَادِكَ لاَ فِي الدُّنْيَا وَلاَ فِي الآخِرَةِ يَا مَعْرُوفًا بِالسِّتْرَان ۞

(ثُمَّ ارْفَعُوا أَيْدِيَكُمْ يَا مَعْشَرَ الحَاضِرِينَ وَالسَّامِعِينَ إِلَى الَّتِي هِيَ قِبْلَةُ) أَيْ: السماء لأنها قبلة (الدَّعوَاتِ العَلِيَّة فَإِنَّ الدُّعَاءَ مُسْتَجَابٌ عِنْدَ هذَا المَكَان) هو الفراغ من المولد كما تقدَّم، وعند الإجابة عنده.

(اللَّهُمَّ لَكَ الحَمْدُ كَمَا يَلِيقُ بِكَ وَكَذَا الشُكْرُ يَا مَنْ لَكَ الصِّفَاتُ السَّنِيَّة نَسْأَلُكَ اللَّهُمَّ بِذَاتِكَ وَصِفَاتِكَ وَأَسْمَائِكَ) الشريفة (الحِسَان) أَيْ: الأسماء الحُسنى.

(أَنْ تُصَلِّي وتُسَلِّمَ عَلى سَيِّدِنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّدٍ بِقَدْرِ عَظَمَتِكَ الذَّاتِيَّة وَآلِهِ وَصَحْبِه وَسَائِرِ الخِلَّان) جمع خليل وهو الصاحب الأكبر صحبة، (وَنَسْأَلُكَ اللَّهُمَّ بِاسْمِكَ العِظَيمِ الأَعْظَمِ وَرِضْوَانِكَ الأَكْبَرِ ذِي الأَنْوَارِ السَّطْوَانِيَّة) المنسوبة للسطوة وهي العظمة.

(وَنَسْأَلُكَ اللَّهُمَّ بِاسْمِكَ الطَّاهِرِ الطَّيِّبِ المُبَارَكِ يَا حَنَّان الَّذِي إِذَا دُعِيتَ بِهِ أَجَبْتَ وَإِذَا سُئِلْتَ بِهِ أَعْطَيْتَ أَوْفَرَ عَطِيَّة) أَيْ: أعظم عطية، (وَإِذَا اسْتُرْحِمْتَ بِهِ رَحِمْتَ وَأَنْتَ أَهْلُ الرَّحْمَةِ يَا رَحْمَن وَإِذَا اسْتُفْرِجْتَ بِهِ) أَيْ: طُلِب منك الفَرَج وهو: الخروج من الضيق، (فَرَّجْتَ أَنْ تُفَرِّجَ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيهِ مِنَ الأَضْيَاقِ الكَدَرِيَّة) المنسوبة للكدر وهو ضيق النفس.

(وَأَنْ تَأْخُذَ بِيَدِ كُلٍّ مِنَّا إِلَى مَقْصِدِه يَا وَاسِعَ الوُهْبَان) أَيْ: العطاء، (وَأَنْ تُهَيِّئَ لَنَا مِنَ الأَسْبَابِ مَا تُخرِجُنَا بِهِ مِنْ هَذِهِ الأَحْوَالِ الرَّدِيَّة وَأَنْ تَنْقُلَنَا إِلَى حَضْرَةِ الجُودِ وَالوُسْعَان) أَيْ: المُطْلَقة.

(وَأَنْ تُدْخِلَنَا فِي شَفَاعَةِ نَبِيِّكَ سَيِّدِنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْعُمُومِيَّةِ) وهي الشفاعة في فصل القضاء وله جملة شفاعات، (وَالْخُصُوصِيَّة) منها رَفْعُ درجات قومٍ. (وَأَنْ تَرْزُقَنَا جِوَارَهُ فِي أَعْلَى الجِنَان).

(وَأَنْ تُمَتِّعَنَا بِأَسْمَاعِنَا وَأَبْصَارِنَا وَالْقُوَّةِ الْبَدِيعِيَّة) التي أودعها في الإنسان، (وَأَنْ تَكْفِيَنَا شَرَّ الْبَرَصِ وَالْجُذَامِ وَالأَمْرَاضِ وَالْجُنَان) هو الجنون.

(وَنَعُوذُ بِكَ اللَّهُمَّ مِنْ كُلِّ آفَةٍ وَمِحْنَةٍ) ما يُخْتَبر به الإنسان، (وَعَاهَةٍ وَزَلْزَلَةٍ وَشِدَّةٍ وَعَصَبِيَّة) هي التعصُّب لغير الحق، (وَذِلَّةٍ) هي الحقارة، (وَغَلَبَةٍ) أَيْ: التسلُّط من غير حق، (وَقِلَّةٍ) أَيْ: من المدد الإلهي، (وَجُوعٍ وَعَطَشٍ وَمَكْرٍ وَأَنْ نُهَان) أَيْ: نُحقر.

(وَفَقْرٍ) هو فقد المال، (وَفَاقَةٍ) هي الاحتياج، (وَحَاجَةٍ إِلَى مَخْلُوقٍ وَضِيقٍ وَوَبَاءٍ وَبَلَاءٍ) هو العذاب، (وَغَرَقٍ وَحَرَقٍ وَفِتْنَةٍ فِي الدِّينِ وَالدُّنْيَا الحَقِيرِيَّة) أَيْ: الحقيرة القليلة.

(وَحَرٍّ وَبَرْدٍ وَسَرْقٍ وَنَهْبٍ وَغَيٍّ) هو الانهماك في الضلال (وَضَلَالَةٍ وَتُهْمَةٍ) هي ظَنُّ السوء بنا أو بغيرنا، (وَزَلَلٍ) هو الانحراف عن الحق، (وَطُغْيَان) أَيْ: إسراف في المعاصي.

(وَهَمٍّ وَغَمٍّ وَخَطَأٍ وَمَسْخٍ) أَيْ: تغيير الخَلْق الحسيّ أو الباطنِيّ، (وَقَذْفٍ وَخَسْفٍ وَعِلَّةٍ وَهَامَّةٍ) هي الدواب ذوات السموم، (وَفَضِيحَةٍ صَوْلِيَّة وَهَلَكَةٍ وَخَلَّةٍ) أَيْ: فَقْدٍ، (وَعِقَابٍ وَعَذَابٍ وَمَعْصِيَةٍ وَقَبِيحَةٍ فِي الدَّارَان).

(وَنَعُوذُ بِكَ اللَّهُمَّ مِنَ الِاسْتِدْرَاجِ وَالأَخْذِ وَالجَوْرِ وَالظُّلْمِ وَالسِّحْرِ وَالحَسَدِ والغَدْرِ وَالكَيْدِيَّة وَالعَدَاوَةِ وَالقَدْحِ وَالحِيَلِ وَالشَّمَاتَةِ وَالكَشْحِ) **هو داء ذات الجنب وهو مرض يصيب الإنسان في جنبه،** (وَالإِطْعَان) **هو التضارب.**

(وَنَسأَلُكَ اللَّهُمَّ المَغْفِرَةَ وَالهِدَايَةَ وَالخَشْيَةَ وَالعِنَايَةَ وَالرِّعَايَةَ وَاللُّطْفِيَّة) **أَيْ: اللُّطف،** (وَالوَرَعَ وَالزُّهْدَ وَالتَّوَكُّلَ وَالإِقْبَالَ وَاللُّطْفَان وَالكَمَالَ وَالجَلَالَ وَالجَمَالَ وَالِاسْتِقَامَةَ عَلَى الطَّرِيقَةِ الطَّاهِرِيَّة).

(وَاقْضِ اللَّهُمَّ لِكُلٍّ مِنَّا مَا فِي نَفْسِه مِنَ الحَاجَاتِ) **فيما يرضيك** (يَا وَاهِبَ المَقْصُودِ يَا خَيْرَ مَنْ أَعْطَى السُّؤْلاَن).

(اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ وَنَتَوَجَّهُ إِلَيْكَ بِنَبِيِّكَ سَيِّدِنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّدٍ نَبِيِّ الرَّحْمَةِ الرَّحْمَانِيَّة يَا سَيِّدَنَا مُحَمَّدُ [يا أَحْمَدُ يَا أَبَا القَاسِمِ] يَا رَسُولَ اللَّهِ -ثَلَاثًا- إِنَّا تَوَجَّهْنَا بِكَ إِلَى رَبِّنَا فِي حَوَائِجِنَا جَمِيعِهَا لِتُقْضَى اللَّهُمَّ شَفِّعْهُ فِينَا بِجَاهِهِ عِنْدَكَ يَا سُلْطَان -ثَلَاثًا- وَنَسْأَلُكَ اللَّهُمَّ السِّتْرَ وَالصِّيَانَةَ وَالسِّرَّ وَالصَّلَاحَ وَالمُكَاشَفَةَ وَالبَرَكَةَ وَالبِرَّ وَالمَغْفِرَةَ فِي الأُولَى وَالأُخْرَوِيَّة وَلا تَفْضَحْنَا اللَّهُمَّ بَيْنَ عِبَادِكَ لاَ فِي الدُّنْيَا وَلاَ فِي الآخِرَةِ يَا مَعْرُوفًا بِالسِّتْرَان).

(اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ عَلَى الذَّاتِ المُحَمَّدِيَّة وَاغْفِر لَنَا مَا يَكُونُ وَمَا قَدْ كَانْ).

فهرس "التحفة المدنية"

الموضوع	صفحة
تقديم	٣
صور المخطوطة المستعان بها	٥
ترجمة صاحب "الأسرار الرَّبَّانِيَّة"	٦
ترجمة شارح "الأسرار الرَّبَّانِيَّة"	١٠
مقدمة الكتاب	١١
الفصل الأول: مقدمة الكتاب	١٤
الفصل الثاني: وفيه أسباب التأليف وحديث جابر	٢٤
الفصل الثالث: ما ورد في حقه ﷺ في الكتب القديمة	٣٢
الفصل الرابع: في نسبه الشريف ﷺ	٤١
الفصل الخامس: انتقال نوره ﷺ والعجائب حين حمله وبشرى الأنبياء	٥١
الفصل السادس: وضعه ﷺ	٥٨
الفصل السابع: ما جرى ليلة مولده ﷺ من المعجزات	٦٦
الفصل الثامن: نشأته ﷺ	٧٦
الفصل التاسع: أحواله ﷺ حين الرضاعة وقبل الرسالة	٨٤
الفصل العاشر: نزول الوحي وقصة الإسراء والمعراج	٩٤
الفصل الحادي عشر: هجرته ﷺ ووفاته ﷺ	١٠٨
الفصل الثاني عشر: أوصافه ﷺ	١١٩
الفصل الثالث عشر: أخلاقه ﷺ	١٢٥
الفصل الرابع عشر: دعاء الختام	١٣١
فهرست الكتاب	١٣٦